وصف القول في القرآن الكريم
دراسة بلاغية في السياق والمقام

إعداد

د / الدسوقي محمد أبو غرارة
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين)
فرع جامعة الأزهر بدسوق

١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

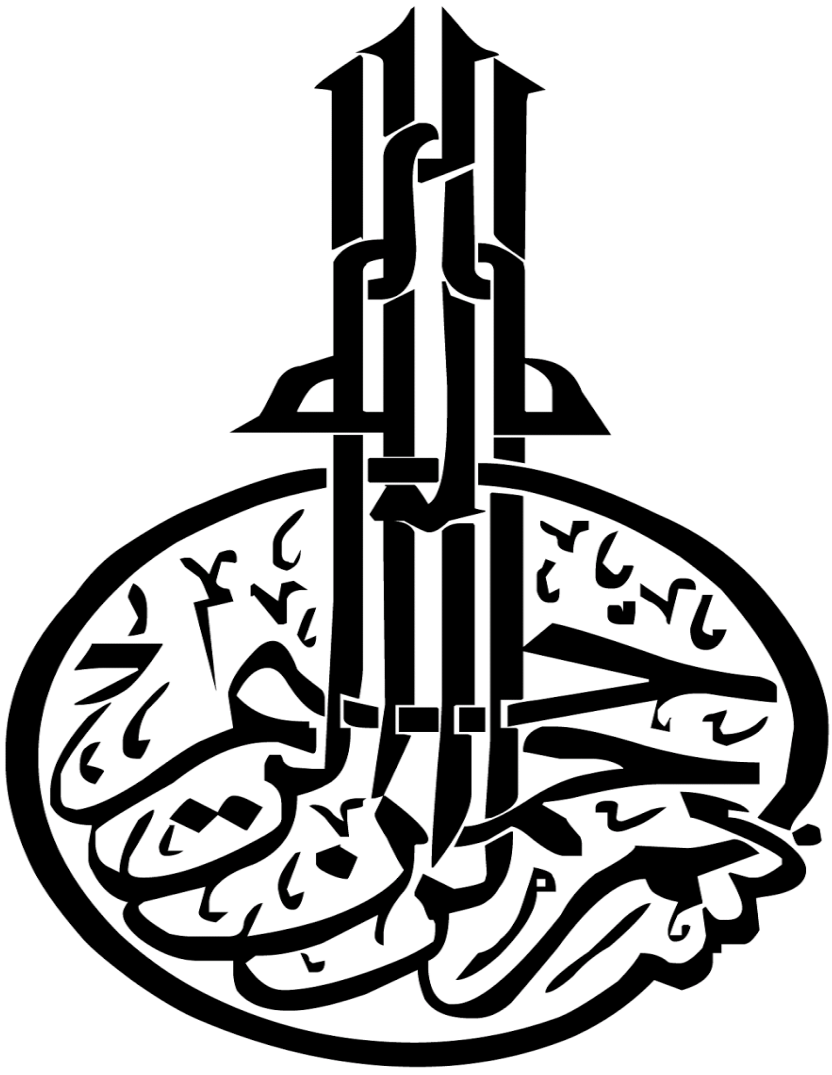

وصف القول في القرآن الكريم دراسة بلاغية في السياق والمقام

د. الدسوقي محمد أبو غرارة

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) فرع جامعة الأزهر بدسوق-جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:

Eldesoukyabogharara215.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلي تتبع أوصاف القول فىٰ القرءان الكريم ، وتجليتها بالدراسة البلاغية في مقاماتها المختلفة من خلال الكشف عن مدلول تلك الصفة من الناحية اللغوية ، وبيان أثرها فىٰ السياق القريب ، وإيحاءاتها البلاغية ، وكذلك فىٰ السياق الكلي للسورة التي وردت فيها ، ومدىٰ ارتباطها بمقاصدها ومعانيها التىٰ حوتها ، كما عمدت إلىٰ الموازنة بين تلك المقامات من خلال تتبع السياق ، وبيان أثره فىٰ تنوع تلك الأوصاف التىٰ وصف بها القول ، وكيف اقتضىٰ المقام تلك الصفة دون غيرها من الصفات، وذلك فىٰ بلاغة عالية ، ودقائق لطيفة ومعان جليلة.

كل هذا وغيره تحاول الدراسه الكشف عنه وتجليته أمام القارئ الكريم.

الكلمات المفتاحية: :وصف- القول – السياق ـ المقام.

Title of the research saying description in the holley quraan..allegenic study in consequence and respect

Dr. Aldousuky MohammedAldousuky abo gharara
Academic description ,.assistant professor department of allergy and criticism.
Email Eldesoukyaboghara 215.el@azhar.edu.eg.

Abstract:

This study aims to in the holley quraan..and explaining it through focusing on theses features in alinguistic ground and showing its effect on the near consequences and its allergenic meanings in addition to the consequences of chapter and how far it is related to its meanings.

In addition i studied the whole consequence and the variety of descriptions and why was a certain description used in allegically and great decent meanings

all of that ,the study tried to evaluate to the reader of the holley quraan

Keywords: description saying respect consequence

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، دعانا إلىٰ التفكر والتدبر في آي كتابه العزيز ، والصلاة والسلام علىٰ سيد المرسلين ، وخير المتدبرين ، وأبلغ الخلق أجمعين ، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم الدين والجزاء.

وبعـــــد،،،

فمع كثرة الدراسات البلاغية حول كتاب الله ﷻ المعجز الزاخر بلآلئ الألفاظ، وأنفس المعاني، وأروع الأساليب التي لا يستطيع أحد من البشر الكشف عن دقائقها وأسرارها، وسبر أغوراها، فإن القرآن الكريم سيظل نبعًا ثرًا لا ينضب ، وسيظل عطاؤه حيًا ممتدًا متجددًا لا يتوقف ، مهما نهل من عطائه العاشقون وعاش في رحابه الدارسون .

وكان من عطاء التفكر والتدبر في كتاب الله فكرة هذه الدراسة ، فعند قراءتي لما امتن الله به عليَّ من وردي من القرآن، وقد كان في سورة النساء ، ووصلت إلىٰ قوله -سبحانه- في مستهل السورة الكريمة : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١) وما تكاد تمر آيتان حتىٰ استوقفني قول الله – ﷻ – : ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾(٢) .

(١) سورة النساء:٥.

(٢) سورة النساء:٨-٩.

فقلت في نفسي: ولم وصف القول بالمعروف في الموطنين الأولين ؟ ولم وصف بـ (سديدا) في الآية الأخيرة ؟ واستطردت بي التلاوة في السورة الكريمة حتىٰ استوقفني قول الله ﷻ في شأن المنافقين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾(١) فوجدت وصفا آخر للقول ، كل هذا في سياق سورة النساء ، هذه الوقفات كانت هادية لي بعد توفيق الله ﷻ إلىٰ لفت انتباهي، وإثارة دوافعي نحو فكرة هذا البحث المتواضع ، فبدأت في استقصاء الأوصاف التي وصف بها القول في القرآن الكريم ، وتتبع مواقعها ، وتدبر أسرارها ، وبعد استقراء تلك الأوصاف تبين لي أن القول جاء موصوفا في ثلاث وعشرين موضعا من آي الذكر الحكيم ، مع تكرار تلك الصفات ، سواء كانت الصفة جملة أو لفظة مفردة ، وسواء جاءت الصفة لقول مصرح به أو محذوف (٢).

وبعد تفكير عميق استقرت فكرة البحث علىٰ أن اقتصر علىٰ دراسة الصفات المفردة لأوصاف القول المصرح به في النظم ، تاركًا المقامات التي وصف فيها القول محذوفًا ؛ وذلك نظرًا لاختلاف المفسرين والمعربين في

(١) سورة النساء:٦٣.

(٢) هذه المواضع: البقرة آية رقم: ٥٩ ، وقد وصف القول فيها بالجملة ، وآية رقم ٨٣ ، وقد جاء الوصف لقول مقدر ، وآية رقم ٢٣١ ، وآية رقم: ٢٦٣ ، والنساء آيات رقم: ٥ ، ٨ ، ٩ ، ٦٣ ، والأعراف آية رقم: ١٦٢ ، وقد وصف القول فيها بالجملة ، وإبراهيم آية رقم: ٢٧ ، والإسراء آيات: ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٠ ، والكهف آية رقم : ٤ ، وقد جاء الوصف فيها لقول المقدر ، وطه آية رقم: ٤٤ ، والأحزاب آية رقم: ٤ ، وقد جاء الوصف فيها لقول مقدر وآية رقم ٣٢ وآية رقم ٧٠ ومحمد آية رقم ٢١ والذاريات آية رقم: ٨ والمجادلة آية رقم: ٢ ، وقد جاء الوصف فيها لقول مقدر، والمزمل آية رقم ٥ ، والطارق آية رقم ١٣ .

إعرابها ما بين الوصف، والحال، والمفعول به، وغير ذلك من وجوه الإعراب، كما تركت ما وقعت فيه الصفة جملة؛ وذلك لعدم التصريح بوصف معين مثل: (معروفًا ، وكريمًا، وميسورًا) وغير ذلك من الأوصاف.

وقد جعلت عنوان هذه الدراسة : (**وصف القول في القرآن الكريم .. دراسة بلاغية في السياق والمقام**) ؛ وذلك لأن الكشف عن بلاغة تلك الصفة التي وصف بها القول اقتضىٰ بعد بيان مدلولها اللغوي النظرة الشمولية للنص التي وردت فيه، مما جعلني أقف عند بعض اللمسات البلاغية السريعة التي تتآذر مع تلك الصفة ، وكذلك بعض خصائص النظم التي كان لابد من بيانها؛ وذلك نظرًا لارتباطها بوصف القول، كما امتدت الدراسة – أحيانا – إلىٰ السياق السابق لوصف القول ، بل والسياق الكلي للسورة الكريمة للكشف عن مدىٰ تلاؤم وتناسب وتناغم الوصف مع السياقين ؛ يقينًا مني أن السورة بمجملها في سياقها العام وحدة كلية واحدة ، بل قد يمتد هذا السياق مع دقة النظر ، وعمق التدبر إلىٰ جميع سور القرآن؛ ليقف المتدبر في النهاية إلىٰ إحدىٰ حقائق الإعجاز الكامنة في هذا الكتاب الخالد ، وهي أن القرآن كله كالسورة الواحدة المترابطة ذات المعنىٰ والغرض الواحد ، وهذا يؤكد تلك الحقيقة العظيمة، وهي أن علاقة السور ببعضها " كعلاقة الأنساب في عالم الإنسان ، وكأن السورة في الذكر الحكيم قبيلة في أمة يربطها أصل واحد .. وإن اختلفت صور أفرادها وأشكالهم وألوانهم ، لكنهم جميعًا إلىٰ رجل واحد"[1].

(١) إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني للأستاذ الدكتور/ محمود توفيق سعد ، ص: ١٥٣ ، مطبعة الأمانة، القاهرة ، الطبعة الأولىٰ -١٤١٢ هـ .

كما قمت أثناء الدراسة ببعض الموازنات البلاغية بين تلك المقامات التي وصف فيها القول ، كاشفا عن سر إيثار هذا الوصف دون غيره من بدائله اللغوية ، وكيف اقتضىٰ السياق هذا الوصف دون ذاك ، متلمسًا أسرار تلك المغايرة اللفظية من خلال الوقوف علىٰ سياق الآية في إطار السياق الكلي للسورة التي وردت فيها .

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي في مقدمة، وتمهيد، وأحد عشر مبحثًا، وخاتمة، وجاء ذلك على النحو الآتي :

١- **المقدمة:** وتضمنت الكشف عن فكرة البحث، ومنبع وجودها ، والمنهج الذي اتبعته في دراسته ، والخطة التي قام عليها .

٢- **التمهيد:** وتضمن :

أ- المدلول اللغوي للفظ (القول) :

ب- الفرق بين القول والكلام في لغة القرآن.

المبحث الأول : وصف القول بالمعروف، وقد جاء في ستة مقامات هي:

- وصف القول بالمعروف في سياق إباحة التعريض بخطبة المعتدة.
- وصف القول بالمعروف في سياق بيان آداب النفقة .
- وصف القول بالمعروف في سياق الوصية باليتامىٰ.
- وصف القول بالمعروف في سياق حث الوارثين علىٰ إعطاء ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين شيئًا من التركة .
- وصف القول بالمعروف في سياق توجيه أمهات المؤمنين بعدم الخضوع في القول .
- وصف القول بالمعروف في سياق توجيه المنافقين وعلاج نفوسهم المريضة.

المبحث الثاني: وصف القول بالسديد.. مقاماته وأسراره البلاغية:

١- في مقام الوصية باليتامىٰ.

٢- في مقام حث المؤمنين علىٰ تقوىٰ الله ومراقبته.

المبحث الثالث: وصف القول بالبليغ في سياق إرشاد النبي ، إلىٰ كيفية التعامل مع المنافقين.

المبحث الرابع : وصف القول بالثابت في سياق تأييد الله للمؤمنين وتثبيته لهم.

المبحث الخامس: وصف القول بالكريم في سياق الوصية بالوالدين.

المبحث السادس: وصف القول بالميسور في سياق الوصية بالأقارب والمساكين وابن السبيل.

المبحث السابع: وصف القول بالعظيم في سياق نفي دعوىٰ اتخاذ الولد من الملائكة له سبحانه.

المبحث الثامن: وصف القول باللين في سياق دعوة فرعون إلىٰ الإيمان والإقلاع عن الطغيان.

المبحث التاسع : وصف القول بالمختلف في سياق بيان تناقض أقوال الكفار حول القرآن الكريم والرسول ، والدعوة عموما.

المبحث العاشر: وصف القول بالثقيل في سياق وصف القرآن الكريم.

المبحث الحادي عشر: وصف القول بالفصل في سياق الحديث عن القرآن الكريم.

ثم جاءت الخاتمة متضمنة أبرز النتائج التي ظهرت من خلال البحث ، وبعدها أثبت فهرسًا للمصادر والمراجع التي استفدت منها، وآخر لمحتويات البحث.

وفي النهاية اسأل الله ﷻ أن أكون قد وفقت في هذا البحث ، وأن يجعله في ميزان الحسنات ، وأن يتقبله مني في صالح الأعمال ، فإن كنت قد أصبت فمنه وحده التوفيق، وإن كانت الأخرىٰ فمن نفسي ومن الشيطان .والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

التمهيد:

أ-المدلول اللغوي للفظ (القول) :

قبل التعرض لمقامات وصف القول بالدراسة البلاغية والكشف عن مناسبة كل وصف لسياقه ومقامه ، ينبغي الإشارة إلىٰ مفهوم القول وبيان مدلوله في اللغة :

جاء في مقاييس اللغة : " الْقَافُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وَهُوَ الْقَوْلُ مِنَ النُّطْقِ. يُقَالُ: قَالَ يَقُولُ قَوْلًا. وَالْمِقْوَلُ: اللِّسَانُ. وَرَجُلٌ قُوَلَةٌ وَقَوَّالٌ: كَثِيرُ الْقَوْلِ"(١).

وفي لسان العرب : " القَوْل: الْكَلَامُ عَلَىٰ التَّرْتِيبِ، وَهُوَ عِنْدَ المحقِّق كُلُّ لَفْظٍ قَالَ بِهِ اللِّسَانُ، تَامًّا كَانَ أَو نَاقِصًا" (٢).

وعند الفيروزآبادي: " قول : الكلام ، أو كلُّ لفظ مذل به اللسان تامًا كان أو ناقصًا ، والجمع: أقوال ، وجمع الجمع : أقاويل " (٣).

ويختلف القول عن الكلام ، وإن فسره بعض اللغويين بالكلام ، يقول ابن منظور : " ابن سيدة : الكلام: القول ، معروف ، وقيل : الكلام ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة ، والقول : ما لم يكن مكتفيا بنفسه ، وهو الجزء من الجملة " (٤).

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، (٥/ ٤٢) ،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة قول (١١/ ٥٧٢)، الناشر: دار إحياء التراث العرب، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان ، الطبعة: الثانية - ١٤١٨ هـ -١٩٩٧ م.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: (٤/ ٣٠٣) تحقيق: محمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٤) لسان العرب : كلم.

وهذا مما هو مشهور عند النحاة، فعندهم الكلام : هو كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، وهو ما يسميه النحويون الجمل(١)، أو هو : اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها(٢) ، يقول ابن جني : " ومن أدل الدليل علىٰ الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس علىٰ أن يقولوا: القرآن كلام الله ، ولا يقال: القرآن قول الله؛ وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر، لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه. فعبر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتًا تامة مفيدة ، وعدل به عن القول الذي قد يكون أصواتًا غير مفيدة، وآراء معتقدة" (٣).

وجدير بالذكر أن ابن جني عقد فصلا في كتابه الخصائص عنون له بقوله: هذا باب القول علىٰ الفصل بين الكلام والقول " ومما ذكره أن معنىٰ (ق و ل) أين وجدت ، وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها علىٰ بعض وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة، وهذا المعنىٰ يلازم الكلمة في جميع تقلباتها اللغوية ، والأصل الأول (ق و ل) وهو القول : وذلك أن الفم واللسان يخفَّان ويقلقان ويمْذَلان به ، وهو ضد السكوت الذي هو داعية إلىٰ السكون، وأما "ك ل م " فهي من حيث تقلبتاتها فمعناها الدلالة علىٰ القوة والشدة. والأصل الأول "ك ل م " منه الكلم للجرح؛ وذلك للشدة التي فيه(٤).

---

(١) ينظر: الخصائص لابن جني: (١/ ١٨). الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

(٢)ينظر: شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك لابن عقيل (١/ ١٤) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

(٣) الخصائص لابن جني: (١/ ١٩).

(٤) ينظر: السابق:(١/ ١٤).

وينتهي ابن جني إلىٰ أن : " الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل علىٰ اختلاف تركيبها. وثبت أن القول عندها أوسع من الكلام تصرفًا وأنه قد يقع علىٰ الجزء الواحد وعلىٰ الجملة وعلىٰ ما هو اعتقاد ورأي لا لفظ وجرس "(١).

ب- الفرق بين القول والكلام في لغة القرآن الكريم(٢):

وبالتأمل في لغة القرآن نجدها تفرق بين المدلول اللغوي بين الكلمتين ، ونستطيع أن نستشف تلك التفرقة بصورة أوضح وأبين من خلال الآيات التي جمعت بين الكلمتين في سياق واحد. ومن أبين ما يكشف عن ذلك قوله تعالىٰ :﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣) .

والقارئ يجد أن الآيتين جمعت بين فعل القول : (قالت)، و(بكلمة)، والفعل (يكلم)، ولكل مقامه تبعًا لمدلوله اللغوي .

---

(١) السابق: (١/ ٣٣).

(٢) استفدت تلك اللمسات البيانية في الدلالة علىٰ الفرق بين القول والكلام في لغة القرآن من مقال بعنوان : الفرق بين الكلام والقول في القرآن لكامل عشري، علىٰ الرابط الإلكتروني :
https://7elmthany.blogspot.com/2016/09/blog-post_4.html
ومقال بعنوان : مفهوم القول والكلام في القرآن الكريم ، عدنان غازي الرفاعي علىٰ الرابط الإلكتروني :
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=539654

(٣) سورة آل عمران: ٤٥-٤٦.

فالملائكة وهم يتحدثون مع مريم ويفصحون عن هذه البشرىٰ والمعبَّر عنها بـ (كلمة) قالوا هذه البشرىٰ بقالب لغوي (إذ قالت الملائكة) وصاغوها بقوله -سبحانه- علىٰ لسانهم : (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسىٰ ابن مريم)، أما التعبير بـ(كلمة) ؛ لأن عيسىٰ – ، – في حدود البشرىٰ كان كلمة ومعنىٰ كائنًا بذات الله ، ويظل عيسىٰ – ، –(كلمة) في مجال العلم الإلهي ، ويصبح (قولًا) في عالم البشر المتجسد ، ومن هنا يظهر سر المغايرة القرآنية في التعبير بلفظ (قول) في سياق آخر وذلك في سورة مريم ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾(١) ؛ وذلك لأن الآية الكريمة جاءت تعقيبًا من رب العالمين- سبحانه- بعدما أبان عيسىٰ – ،- عن حقيقته وهو وليد، عندما أشارت إليه أمه فقال بقدرة الله ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾(٢) ، وبهذا لم يصبح معنىٰ كائنا بذات الله ﷻ بل أصبح حقيقة يعرفها القوم ، فناسب ذلك أن يعقَّب علىٰ حديثه بلفظ (القول)، وفي الآية الثانية جاء التعبير بلفظ (ويكلم الناس) دون: (ويقول للناس في المهد ..)؛ وذلك لأنه –، -كلم الناس- وتلك خصوصية له- في المهد بالمعنىٰ الكائن بذات الله ﷻ فقال – كما حكىٰ القرآن –: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ

(١) سورة مريم: ٣٤.

(٢) سورة مريم: ٣٠-٣٣.

ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾[1]، وجاء قوله بلغة يفهمها قومه، وناسب ذلك أن يعبر بالفعل (قال) ؛ لأنه ترجم مراد الله بلغة يفهمها قومه .

ولعل من أوضح ما يبين الفرق بين الكلمتين في لغة القرآن الكريم-أيضًا - قوله – سبحانه- في شأن مريم – عليها السلام- ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[2] فقد قالت ذلك بقالب لغوي يتناسب ووصول معاني ودلالات تلك الكلمات للبشر، كما أمرها الله ﷻ في ذات الوقت ألا تكلم اليوم إنسيا ، بأن تمتنع عن التصريح بالمعاني والدلالات الكامنة بذاتها، ولا تصرح بها في صورة قول يكشف عن مشاعرها وغضبها من اتهامها في شرفها، فكان نتيجة ذلك أن تكلَّم وليدها في المهد صبيًا ليرد عنها.

نخلص مما سبق : أن الكلام في لغة القرآن : هو المعنىٰ الكائن بذات المتكلم دون خروجه في صورة قالب لغوي.

أما القول : فهو صياغة الكلام (المعنىٰ الكائن في الذات) بقالب لغوي عبر لغة محددة يمكن الاحتفاظ بها وعدم النطق بها ، وهذا هو السر ، قال تعالىٰ: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[3] . وقال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[4] . أو النطق بها بأي نوع من أنواع القول من خلال قول منطوق بلغة ، أو حتىٰ بإشارة أو إيماءة ، وقد يخرج القول من الفم ويصوغه اللسان علىٰ نقيض ما هو مضمر

(١) سورة مريم: ٣٠.
(٢) سورة مريم:٢٦.
(٣) سورة الرعد: ١٠.
(٤) سورة الملك:١٣.

في القلب ، أي يمكن أن نقول ما يناقض الكلام ، بمعنىٰ ما يناقض المعنىٰ الكائن بالذات ، ومن أبين ما يوضح ذلك قوله – سبحانه- : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾(١).

وأستطيع أن أقرر من خلال ما سبق أن القول ليس مجرد لفظ ينطق به اللسان، وإنما هو سلوك، وتصرف، وفعل، وعمل، وأداء يكشف عما في النفس عبر قالب لغوي، وخير ما يدل علىٰ هذا المعنىٰ قوله -سبحانه- : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وسوف تكشف الدراسة في الصفحات الآتية عن تلك المعاني في كل مقام وُصف فيه القول بوصف معين ، كاشفة عن سر إيثار هذا الوصف دون غيره في السياق الذي ورد فيه ، ومدىٰ تناغمه مع المقام وتناسبه مع لبنات النظم الكريم .

(١) سورة آل عمران:١٦٧ .

(٢) سورة فصلت:٣٣.

المبحث الأول : وصف القول بالمعروف

توطئة:

١- المعروف في لغة القرآن الكريم :

ورد لفظ(معروف) في القرآن الكريم في ستة وثلاثين موضعًا[١] ، ونالت السور المدنية حظها الأوفر من تلك المواضع؛ حيث بلغ عدد ورودها فيها ثلاثًا وثلاثين مرة ، ومن العجيب أن ما يقرب من نصف هذه المواضع ورد في سياق حديث القرآن الكريم عن الطلاق، والرضاع، وشئون الأسرة عمومًا، وقد ورد اثنتي عشرة مرة في آيات البقرة وحدها، والثلاثة الأخرىٰ في سورة الطلاق، وشيوع هذا اللفظ في آيات الطلاق بهذه الصورة لا شك له دلالته القوية في حث القرآن الكريم علىٰ إشاعة معاني الرحمة، والإحسان، والحرص علىٰ إنهاء الخلافات في هذا المجال في جو بعيد عن الأحقاد، والخصومات، والنزاعات، والطلاقُ باب لكل تلك المعاني ، ومن هنا كان حرص البيان القرآني في هذه الآيات علىٰ إشاعة تلك المفردة في لبنات نظمها حتىٰ لا يكون المجتمع عرضة لهذه الأخلاق السيئة التي تقوِّض بنيانه، وتعكر صفو علاقاته، وتفقده تماسكه وترابطه من أجل تلك المسائلة الطارئة التي يضطر إليها الطرفان عندما تستحيل العشرة بينهما.

ويلي سورة البقرة في ورود هذا اللفظ سورة "النساء"، فقد ورد فيها ست مرات، وقد جاءت - أيضًا- فيما يتعلق بالمجال الأسري والعلاقات

---

(١) آيات البقرة : ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢، ٢٣٣ (مرتين)، ٢٣٤، ٢٣٥ ، ٢٣٦، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٣ ، وآل عمران : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٤ ، والنساء : ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٦ ، ٢٥ ، ١١٤ ، والأعراف : ١٥٧ ، والتوبة: ٦٧ ، ٧١ ، ١١٢ ، والحج : ٤١ ، والنور: ٥٣ ، ولقمان : ١٥ ، ١٧ ، والأحزاب : ٦ ، ٣٢ ، ومحمد : ٢١ ، والممتحنة : ١٢ ، والطلاق: ٢ (مرتين)، ٦.

الإنسانية عمومًا من حيث الوصية باليتامىٰ، والمرأة، و توزيع التركة، وإرضاء بعض العناصر الضعيفة مثل المساكين وذوي القربىٰ بشيء منها؛ جبرًا لخاطرهم، و تطييبًا لنفوسهم ، وهذا المنحىٰ الذي سلكه البيان القرآني في استعمال تلك اللفظة مما يرتبط بالمعنىٰ الأم في السورة الكريمة، والذي بدا جليًّا في كل مقاصدها ،وهو إقامة المجتمع في جو مترابط متماسك متآلف متحاب، نابعة تلك المعاني من تقوىٰ الله ﷻ واعتبار الإنسانية كلها كالأسرة الواحدة .

هذا وقد ورد لفظ (القول) موصوفًا بتلك الصفة (معروف) في ستة مواضع في الذكر الحكيم، وجاء موضعان منهما في سورة "البقرة" ، وآخران في سورة "النساء"، وموضع في سورة "الأحزاب"، وآخر في سورة "محمد"، والملاحظ أنها كلها سور مدنية، و سوف تكشف الدراسة –بإذن الله تعالىٰ– عن سر التعبير بهذا الوصف للقول ، ومدىٰ ارتباط تلك المفردة بالسياق الذي وردت فيه، وقبل بيان ذلك سوف ألقي الضوء سريعًا علىٰ المدلول اللغوي لتلك المفردة حتىٰ يكون ذلك كاشفًا عن مدلولها في السياق القرآني، وأثره البلاغي، وإيحاءاته في النظم.

٢- المدلول اللغوي للفظ معروف :

يدور المدلول اللغوي للكلمة في معاجم اللغة حول العلم بالشيء، وعدم نكرانه ، واستحسانه واطمئنان النفوس إليه، و تعارف الناس عليه، كما تفيد معاني الطاعة، والتقرب، وفعل الجميل والبر والإحسان ، وعمل الفضائل .

ففي لسان العرب : " عرف: العِرفَانُ: الْعَلَم؛ وَرَجُلٌ عَرُوفٌ وعَرُوفَة: عَارِفٌ يَعْرِفُ الأُمور وَلَا يُنكِر أَحداً رَآهُ مَرَّةَ، وعَرَّفَه الأَمرَ: أَعلمه إِيَّاهُ. وعَرَّفَه بيتَه: أَعلمه بِمَكَانِهِ. والتعريف: الإعلام، وَقَدْ تَعَارَفَ القومُ أَي عَرَفَ بعضهُم

بَعْضًا. والمعروف: الوجه؛ لأن الإنسان يُعرف به، والمعروف: ضد المنكر ، والعُرْفُ: ضِدُّ النُّكْر. يُقَالُ: أَوْلاه عُرفًا أَي مَعْروفًا. والمَعْرُوف والعَارِفَةُ: خِلَافُ النُّكر. والعُرْفُ والمَعْرُوف: الجُود، وَقِيلَ: هُوَ اسْمُ مَا تبْذُلُه وتُسْديه؛ والمَعْرُوف : مَا يُستحسن مِنَ الأَفعال ، والعُرْفُ والعَارِفَة والمَعرُوفُ وَاحِدٌ: ضِدُّ النُّكْرِ، وَهُوَ كلُّ مَا تَعْرِفه النَّفْسُ مِنَ الخيْر وتَبْسَأُ بِهِ وتَطمئنّ إِلَيْهِ، والمَعْرُوف: النَّصَفةُ وحُسْن الصُّحْبةِ مَعَ الأَهل وَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ" (١).

وعند الراغب في مفرداته : " المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر ما ينكر بهما"(٢).

ويقول ابن الأثير: " وَهُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرف مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ والإِحسان إِلَىٰ النَّاسِ، وَكُلِّ مَا ندَب إِلَيْهِ الشرعُ وَنَهَىٰ عَنْهُ مِنَ المُحَسَّنات والمُقَبَّحات وَهُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الْغَالِبَةِ أَي أَمْر مَعْروف بَيْنَ النَّاسِ إِذَا رأَوْه لَا يُنكرونه" (٣).

والآن إلىٰ رحاب التحليل البلاغي لمقامات وصف القول بالمعروف في السياق القرآني التي جاءت في مقاماتها الستة، وقد عرضها البحث كالآتي:

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (عرف).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٣٤ ، راجعه وقدم له: وائل أحمد عبد الرحمن- المكتبة التوفيقية- بدون.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/ ٢١٦، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ - محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

١-وصف القول بالمعروف في سياق إباحة التعريض بخطبة المعتدة:

قال -تعالىٰ-:﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١).

الآية الكريمة من سورة "البقرة" جاءت في سياق عرض القرآن الكريم لبعض الأحكام المتعلقة بالطلاق، وبعد أن استوفي الحديث عنها أعقبها بالحديث عن بعض الأحكام الخاصة بالمتوفىٰ عنها زوجها أو المطلقة طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه من حيث خطبتها، وما ينبغي أن يكون من الرجال إذا رغب أحدهم في الزواج من إحداهن.

فالآية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمقاصد السورة الكريمة ؛ حيث قطعت السورة شوطًا كبيرًا في بيان أحكام الشريعة الإسلامية التي يحتاجها المجتمع الناشئ الجديد، ليتحقق لأهله الهداية والراحة والسكينة وهذا ما أبانت عنه السورة الكريمة في مطلعها:﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) " ولتكتمل بها صورة الإسلام و هديه ، عقيدة وشريعة؛ فإن السورة سنام القرآن"(٣).

وقد جاء الخطاب في الآية الكريمة موجهًا إلىٰ الرجال؛ لأن تطلع النفوس و رغبتها في الارتباط بالنساء والتصريح بذلك من شأنهم، وقد كشف النظم عن إباحة التعريض لهم بخطبة تلك المرأة المعتدة باستهلال الآية الكريمة

---

(١) سورة البقرة، الآية :٢٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية :٢.

(٣) منهج البحث البياني القرآني عن المعنىٰ في سياق السورة ، د. محمود توفيق : ص ١٣٧ ، مطبعة الأخوة الأشقاء – مصر .

بالكلمة الأم في المعنىٰ، والتي عليها معقد الكلام، وهي نفي الحرج ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ مبادرة بفتح باب الأمل أمام هذا الرجل الذي تطلعت نفسه بالارتباط بتلك الأنثىٰ، في ظل تلك الظروف والملابسات التي قد تحظر عليه ذلك، وإرشادًا له إلىٰ النهج الشرعي الذي يمهِّد له الطريق في تحقيق ما تطلَّعت إليه نفسه، بما يراعي مشاعر تلك المرأة تجاه زوجها المتوفىٰ عنها، وما كان بينهما من قدسية الحياة الزوجية، ويحقق أملها -في الوقت ذاته- في استئناف حياة جديدة، قد تعوضها مرارة الفقد وألم الحرمان من تلك الحياة.

والتعريض معناه "أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة علىٰ مقصوده، ويصلح للدلالة علىٰ غير مقصوده، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح ، وأصله من عُرْض الشيء وهو جانبه، كأنه يحوم حوله ولا يظهره"(١).

وقد ذكر المفسرون صيغًا متعددة، وأطالوا في سردها، ولا مجال لبسط القول فيها، ومنها ما هو داخل في التعريض، ومنها ما ترفضه الدلالة اللغوية له ، بل هو إلىٰ التصريح أقرب(٢)، والذي أراه أنه يشمل كل ما تفهم منه المرأة مقصوده إشارة وتلميحًا ، لا تصريحًا وتوضيحًا .

---

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي : ٦/ ٤٦٩، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

(٢) مثل ما قيل : قول الرجل للمرأة في عدتها والله إني فيك لراغب وإني عليك لحريص ونحو هذا، ومثل : إني لا أريد أن أتزوج غيرك. ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر= = الطبري(المتوفىٰ: ٣١٠هـ) : ٥/ ١١٤ . تحقيق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

وفائدة التعريض "حتىٰ تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه" (١)، وقيل: "التمهيد وتنبيه الذهن حتىٰ إذا تمت العدة كانت المرأة عالمة بالراغب أو الراغبين، فإذا سبق إلىٰ خطبتها المفضول ردته إلىٰ أن يجئ الأفضل عندها"(٢).

وأرىٰ أن فائدة إباحة التعريض تعود علىٰ الطرفين، الرجل الذي تطلعت نفسه إليها، وكذلك المرأة إذا بدا في نفسها الرغبة فيه.

ويمتد السياق بجملة العطف ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كاشفًا عن إباحة ما قد تُكِنُّه بعض النفوس في سرائرها من الرغبة في الارتباط بتلك المرأة ، فلا حرج في ذلك – أيضًا– ، والمعنىٰ: أو أخفيتم في أنفسكم، فأسررتموه من خطبتهن وعزم نكاحهن في عِدَدِهن، فلا جناح عليكم – أيضًا– في ذلك(٣).

وإنَّما أخرت إباحة الإكنان علىٰ التعريض ؛ " للتنبيه علىٰ أنه أفضل وأرقىٰ علىٰ ما للمعتدة من حرمة، مع التنبيه علىٰ أنه نادر الوقوع"(٤)، وندرة وقوعه تعني أن الأصل الذي جبلت عليه النفس هو عدم القدرة علىٰ الصبر في إكنانه في النفس ؛ "لأن شهوة النفس إذا حصلت في باب النكاح لا يكاد يخلو ذلك المشتهِىٰ من العزم والتمني "(٥).

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، للزمخشري : ١/ ٢٥٥، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

(٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا : ٢/ ٣٣٨. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري : ٥/ ١١٤.

(٤) التحرير والتنوير ، للطاهر ابن عاشور :٢/ ٤٥٢ . الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

(٥) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٦/ ٤٦٩.

كما أخرت تمهيدًا ووطاءً جيدًا لجملة التعليل ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ وكأن نظم الكلام يُسلم بعضُه بعضًا، وكل جملة منبثقة من سابقتها، وإسناد العلم إلىٰ الله ﷻ، والتأكيد بـ (أن) يكشف عن سر إباحة الله ﷻ لما سبق من إباحة التعريض، أو الإكنان في النفس، وأنها إباحة نابعة من علمه – سبحانه– بضعف الرجال أمام مغريات العاطفة، وحب وصولهم، وتعلق نفوسهم بالنساء، ولذا أسقط عنهم الحرج بإباحة التعريض بمرادهم، ولكن لمَّا كانت النفس قد تتجاوز ذلك، وبخاصة في هذا الباب، أتبع – سبحانه– ذلك بذكر الضوابط المحدَّدة لتلك النزعات والميول القلبية، بما يهذب السلوك ، ويقوم النفوس ، ويحفظ للمرأة المعتدة في الوقت ذاته حياءها، ويمنع عنها قالة السوء، فقال –سبحانه–: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

وللسادة المفسرين كلام مطول ومبسوط في بيان معنىٰ (سرًا) ترتب عليه الاختلاف في توجيه نوع الاستثناء في الآية[1] ، والذي أميل إليه أن المراد النهي

(١) ينظر إليها في: جامع البيان للطبري: ٥/ ١١٣ ، ١١٤ ، والكشاف: ١/ ٢٥٧ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/ ١٨٧ ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .
وتفسير البيضاوي ،أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: ١/ ١٤٥، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٨ هـ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي: ١/ ٥٤٤، تحقيق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ، وروح البيان لـ إسماعيل حقي : ١/ ٣٦٨ ، الناشر: دار الفكر – بيروت. ، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١/ ١٨٧، تحقيق : علي محمد البجاوي ، الناشر: عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، وإعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش : ١/ ٣٤٩ ، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ ، والجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبدالرحيم صافي : ٢/ ٤٩٧ . الناشر: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت– الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

عن كل مواعدة سرية من الشأن أن يُفْصَح فيها صراحة بذكر النكاح. "قال أبو عبيدة : السر: الإفصاح بالنكاح"(١). وقال ابن عطية: "أجمعت الأمة علىٰ أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت الأمة علىٰ أن الكلام معها بما هو رفث، وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه وجوَّز ما عدا ذلك"(٢).

وعليه : فإن الاستثناء في الآية متصل؛ لأن المستثنىٰ من جنس المستثنىٰ فيه ، فكلاهما قول، ولكن هذا قول منهي عنه، وهذا قول مباح، وهذا ما أكده الشيخ الزمخشري رافضًا حمل الاستثناء علىٰ الانقطاع، بل نص علىٰ عدم جوازه، وقد جعله استثناء متصلا باعتبار أنه استثناء مفرغ، وجعل ذلك من وجهين فقال :" فإن قلت: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت: بلا تواعدوهنّ، أي لا تواعدوهنّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة. أي لا تواعدوهنّ إلا بأن تقولوا، أي لا تواعدوهنّ إلا بالتعريض. ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من (سِرًّا) لأدائه إلىٰ قولك لا تواعدوهنّ إلا التعريض" (٣).

وتعليل الزمخشري بعدم جواز انقطاع الاستثناء في الآية أوضحه الشهاب البيضاوي أكثر فقال: "وقيل: إنه استثناء منقطع من (سراً) وهو ضعيف؛ لأدائه إلىٰ قولك: لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو ـ أي: التعريض ـ غير موعود "(٤).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج: ١/ ٣١٧، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية : ١/ ٣١٥ ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ.

(٣) الكشاف : ١/ ٢٥٧ ، وينظر: روح المعاني للألوسي: ١/ ٥٥٤.

(٤) تفسير البيضاوي- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ١٤٥، وينظر: تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن

وبعيدًا عن كل هذا الخلاف الذي أطال فيه المفسرون، والذي حاولتُ قدر الطاقة اختصاره، وعرض ما هو أقرب إلىٰ المعنىٰ المراد، وما يتفق مع روح الآية الكريمة، و يتناسب مع طبيعة تلك الدراسة، أرىٰ أن المهم هو الإبانة عن مقصد النظم الكريم، وهو إحاطة هذا التعريض الذي أباحه الشارع في بدء الآية الكريمة من خلال نفىٰ الجناح بسياج من التحذير، وإلا لقيل مباشرة (علم الله أنكم ستذكرونهن ولا تعزموا عقدة النكاح حتىٰ يبلغ الكتاب أجله) بالتعقيب مباشرة بجملة النهي عن العزم علىٰ عقدة النكاح حتىٰ انتهاء العدة، دون استطراد بجملة الاستدراك بـ (لكن) وما تلاها من الاستثناء بـ (إلا) ؛ لأن إباحة التعريض قد فُهِمَت من صدر الآية مباشرة، وعُقد المعنىٰ عليها، وبلاغة الكلام في اتجاهه نحو مقصوده من بادئ الأمر، وتوفير انتباه السامع له، ولكن لما كان التعريض منزلقًا للرجال لما قد يُتَجَاوَزُ به، كان من المناسب إضفاء معاني التحذير، والدقة، والحسم، ومزيد من التنبيه، وبخاصة في ظل تلك الظروف التي تعيشها المعتدة ونظرة المجتمع إليها، و خطورة الموقف الذي هي فيه، وقد جاءت لبنات النظم كلها كاشفة عن تلك المعاني وكأنها إشارات تحذير تلقي الضوء الأحمر أمام الرجال؛ تنبيهًا لهم إلىٰ خطورة ما قد يقعون فيه وهم يعرِّضون بمقصودهم، وذلك كالآتي:

- بدا أسلوب الحذف البلاغي في النظم الكريم، فالواو في قوله : (ولكن) عاطفة علىٰ محذوف وقع عليه الاستدراك لدلالة (ستذكرونهن) عليه،

محمد بن مصطفىٰ (المتوفىٰ: ٩٨٢هـ): ١/ ٢٧١، ٢٨١ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

تقديره: علم الله أنكم ستذكرونهن فاذكروهن(١)؛ وذلك تسليطًا للضوء مباشرة علىٰ المنهي عنه، وتنبيهًا للذهن عليه ، حتىٰ لا يقع في مغبة المخالفة.

– التعبير بـ(لكن) و معنىٰ الاستدراك لا يفارقها في جميع معانيها(٢)، والاستدراك فيه معاني اللفت والتنبيه لما قد يفوت النفس ، أو يخفىٰ عليها، أو قد تتجاوز فيه، وكأن فيه شوبًا من الشرط الخفي، والشروط من شأنها أن تحترم، وقد أضاف الشارع عليها القدسية ،فأوجب علىٰ المؤمنين الالتزام بها، فقال نبينا الكريم: ((الْمُؤمِنونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ)) (٣).

– ويأتي التعبير بـ (لا) الناهية التي هي أصيلة في النهي، ولا يستفاد من غيرها إلا بمعونة السياق، بما فيها من امتداد الصوت وإشباعه وإطالة النطق بالمد، وكأنها صيحة تحذير مدوية في وجه كل من يحوم ، أو يحاول التعدي عن دائرة التعريض المباح بأي وجه كان .

– التعبير بالفعل (تواعدوهن) والمواعدة: مفاعلة من الجانبين، وهذا يبرز خطورة الموقف، ويستدعي المبالغة في التحذير، والنساء حبائل الشيطان، وجانب الفتنة منهن سهل وميسور، وبخاصة مع الوعد الصريح بالنكاح مع تلك المعتدة ، وهذا ناقوس خطر شديد ، ومدرجة للفتنة أكيدة؛ ولذا تسلط النهي علىٰ الفعل المضارع (تواعدوهن)؛ تحذيرًا قويًا من المواعدة الخارجة عن إطار التعريض بالقول المعروف في أي زمن من أزمنة

(١) ينظر: الكشاف : ١/ ٢٥٦.

(٢) ينظر: الجنىٰ الداني في حروف المعاني، للمرادي : ص ٥٩١ ، تحقيق: د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٣) المعجم الكبير للطبراني: ٤/ ٣٢٧، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية .

العدة ، وإعلانًا قاطعًا من الوقوع في مغبة المخالفة للمنهي عنه، وقد ناسب ذلك اقتران الفعل المنهي عنه بنون التوكيد الثقيلة ؛ إلحاحًا في الرفض، وقوة في الحث علىٰ عدم المخالفة ؛ وذلك لأن " النون المشددة أبلغ في التأكيد من المخففة ؛ لأن تكرير النون بمنزلة تكرير التوكيد "(١)، والنون " إذا كانت خفيفة كانت بمنزلة تأكيد الفعل مرتين، أو شديدة فبمنزلة تأكيده ثلاثًا"(٢)، ولا تخفىٰ نغمة النون المشددة في الفعل ، وما أضفته من التنبيه وتوقيف النفس شيئًا ما نحو المعنىٰ المحذور منه.

– وتتضاعف معاني التحذير بتقييد المواعدة بـ (سرا)، تلك اللفظ القصيرة في مبناها اللغوي ومقطعها الصوتي، إلا أنها خطيرة وغير مأمونة العواقب، وبخاصة في ظل هذا المقام، فالسر فيه خفاء، وتعتيم، وتكتم ، ولبس، وغموض، وهذه كلها معانٍ تتنافىٰ مع المقام، وطريق للقيل والقال، فضلًا عن عطاء هذا التقييد في منع المواعدة من أساسها " وإذا كان النهي عن المواعدة سرًا، علم النهي عن المواعدة جهرًا بالأولىٰ" (٣).

ثم يأتي أسلوب الاستثناء بـ (إلا) بنبرتها القوية ونغمتها الحاسمة المنبعثة من كسر همزتها، وتضعيف اللام فيها ، والاستثناء عمومًا فيه معاني التضييق والتحديد الواضح ؛ إذ هو انتفاء لشيء معين من مطلق العموم، وهذا يعني أن دائرة التعريض المباح في ظل هذا الظرف الذي فيه الأنثىٰ وملابسات

(١) شرح المفصل لابن يعيش :٥/ ١٦٣ ، إدارة الطباعة المنيرية – مصر – بدون .
(٢) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي : ٤/ ٤٣٠ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابي الحلبي وشركائه (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان).
(٣) التحرير والتنوير :٢/ ٤٥٤ .

عدتها، وكذلك الرجل الراغب في الارتباط بها، ينبغي أن تكون ضيقة ومحدودة؛ احترامًا لرابطة الزوجية القديمة، ومراعاة لمشاعر أهل الزوج السابق، وحفظًا من الانزلاق لما قد لا يُحمد عقباه.

ومع هذا التقييد المنبعث من الاستثناء بـ (إلا) نجد طلاقة المد فيها يؤذن بفتح باب الأمل، و إيجاد مخرج لهذا الرجل الذي تاقت نفسه، و يود الارتباط بتلك المرأة التي مات عنها زوجها، أو انفصمت عرىٰ الزوجية القديمة لها بطلاقها البائن، وتتسع رحابة الأمل بإيثار النظم الكريم التعبير بالمصدر المؤول (أن تقولوا) ليجد هذا الرجل الفسحة في التعريض بمقصوده، ويتخير الوقت المناسب له في زمن العدة ليعرِّض بما أكنَّته نفسه ورغبت فيه.

ومن عطاء المصدر المؤول في هذا السياق – أيضًا– استحضار صورة هذا القول أمام الأعين؛ تأكيدًا علىٰ أنه مما لا يُخشىٰ منه، ولا يؤاخذ علىٰ الإفصاح به، وأنه لا يخرج عن دائرة التعريض الشرعي المباح، ولولا هذه المعاني وغيرها مما لا نستنبطه لقيل: (ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا بقول معروف)، وقد اقتضىٰ مقام التحذير أن تصاغ العبارة في بيان فخم قوي منضبط بادية معاني الحسم والحزم والتحديد الدقيق في أعطافه، وذلك من خلال أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء(١)؛ حيث قصرت المواعدة السرية علىٰ قول المعروف ، بحيث لا تتعداه إلىٰ غيره قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، وفيه مبالغة قوية في التأكيد علىٰ عدم الخروج عن دائرة التعريض بالقول المعروف

(١) قلت عن طريق النفي والاستثناء مع أن المعبر به هنا النهي بـ (لا) ؛ وذلك لأن المراد بالنفي والاستثناء في باب القصر مطلق أداتي نفي أو استثناء أو ما هو بمعناهما ، والنهي هنا بمعنىٰ النفي. ينظر: دراسات في علم المعاني ، د/ حسن أمين مخيمر: ٤٤ ، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م.

المباح، وأنه لا مجال للتهاون أو التلاعب بالألفاظ والعبارات التي تخرج بهذا التعريض عن دائرة الشرع والمباح، وقد جاء هذا الطريق من طرق القصر متناغما مع المعنىٰ المراد ، وقد تطلبه المقام ، فمعلوم أنه " لا يأتي إلا في المعنىٰ الذي يحتاج إلىٰ فضل تقرير وتوكيد"(١)، كما أنه " لا يكون إلا في المقامات العنيفة المستوغرة جهيرة النبرة قوية الوقع"(٢)، وتتضاعف معاني الحسم والحزم بالتأكيد بصيغة المصدر (قولًا) فهو قول منضبط محدد دقيق لا يخرج عن دائرة هذا الوصف الدقيق الذي آثره البيان القرآني(معروفًا) ليهمس الرجل لتلك المرأة بمكنونه من بعيد بما يوافق العرف ويرتضيه الشرع، والخلق الكريم ويكشف عن حسن نيته، ولا ينكره عليه أحد، بل يقطع الطريق أمام ألسنة السوء، فلا تجد للقيل والقال سبيلا حتىٰ تنتهي فترة عدتها، وهنا يكشف عن مراده بكل وضوح وصراحة، وحق له بل ليس أمامه إلا أن يأتي البيوت من أبوابها .

وإذا كان سمت التحذير قد غلب علىٰ طابع تلك الجملة الكريمة، وأشارت إليه كل لبنة من مكوناتها اللغوية التي آثرها النظم الكريم بدقة واضحة فتأتي خاتمة الآية لتصرح بذلك تصريحًا ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٣) فسبحانه يعلم كل ما تكنُّه النفوس ، و ما تصرح به الألسنة، و هذا تهديد رهيب من مغبة مخالفة كل ما

(١) دلالات التراكيب، دراسة بلاغية ،أ.د/ محمد أبو موسىٰ: ١٠٤ ، ط٢ ، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧ م.

(٢) علم المعاني ،أ.د/ صباح عبيد دراز: ٢/ ٥٩ ، مطبعة التركي بطنطا١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) سورة البقرة:٢٣٥.

نهىٰ عنه سابقا سواء المواعدة بالسر، أو العزم علىٰ عقدة النكاح قبل بلوغ الكتاب أجله، وألفاظ خاتمة الآية بالغة التحذير والترهيب والتخويف، فالفعل (اعلموا) لا يُعبَّر به إلا عند الأمر المهم الذي يُقْصَد به إثارة الذهن إليه، وقد تكررت مادته ثلاث مرات في الآية (علم الله –واعلموا –يعلم ما في)، كما علا صوت الألوهية مؤذنًا بالترهيب والوعيد ، فتكرر اسم الجلالة ثلاث مرات أيضا، وبدا التأكيد جليا من خلال التعبير بأن، وتكرار الإسناد في (أن الله يعلم) وتقييد العلم بما في أنفسكم، فإذا كان – سبحانه– يعلم ما في النفوس، فما تجهر به ، هو به أعلم.

وقد تكرر هذا القيد في الآية مرتين ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وأخرىٰ في قوله ﴿يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ إشارة بالغة إلىٰ خطر الإقدام بالتصريح بالخطبة؛ تحقيقًا لمطالب النفس لما يبدو في نفوس كثير من الناس من التساهل في ذلك؛ سعيًا وراء نداء الشهوة واستعجالها ؛ ولذا كان التصريح الواضح بالأمر بالحذر منه – سبحانه– (فاحذروه) في غاية ما يتطلبه المقام، ويتطابق مع مقتضىٰ حال تلك النفوس الضعيفة؛ ترهيبًا بالغًا، وتحذيرًا صريحًا مدويًا، وتهديدًا لا تتحمل النفوس المؤمنة مغبَّة مخالفة المنهي عنه في الآية، أو الحوم حول حماه فتوشك أن تقع فيه، ويُفْتح باب الرحمة والشفقة بنهاية جملة التذييل ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لعلمه – سبحانه– بضعف النفوس، وما قد يصدر عنها من بعض الهنات، من الوساوس والخواطر في هذا الشأن فيغفرها ولا يؤاخذ بها، ويحلم علىٰ مرتكبيها فلا يؤاخذهم و يعجل لهم العقوبة.

كل هذه الوسائل البلاغية وغيرها كان له أثره البالغ في بيان هذا الحكم الشرعي الجديد، الذي هو المقصود الأول من الآية، وقد جاء هذا البيان ممزوجًا بوسائل التحذير الوجدانية التي تخاطب النفوس، وتُرهِب القلوب، من مغبة تعدي الإطار الذي حدَّده الشرع، والذي جاء وصف القول بالمعروف في سياق جملة الاستثناء معبرًا عنه بدقة بالغة وقد نبه علماؤنا أنه ما "من آية إلا قد تشكَّل معناها من الشرعي والروحي معا، ومنزلُها من السياق الكلي من السورة هو الذي يبرز عنصرًا علىٰ آخر، وبناؤها اللغوي هو الذي يمنح عنصرًا جلاءً وقربًا إلىٰ الإدراك دون الآخر"(١).

(١) سبل الاستنباط من القرآن والسنة – دراسة بيانية ناقدة، أ. د/ محمود توفيق سعد : ص٤٨٣ ، مطبعة الأمانة – مصر – ط الأولىٰ – ١٤١٣ هـ .

٢- وصف القول بالمعروف في سياق بيان آداب النفقة

قال –تعالىٰ– :﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾(١) .

الآية الكريمة جاءت عقب إخبار الحق ﷻ عن جزاء الذين لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىٰ؛ إمعانًا وتأكيدًا علىٰ وجوب تطهير الصدقات من داء المن والأذىٰ، وتكشف عن انحطاط هذه الصدقة، وأنها صدقة مذمومة يبغضها الله ﷻ لما تحمله وراءها من أذىٰ المتصدق عليه، وهذا من شأنه أن يخدش حياءه، ويسقط كرامته، ويذهب إنسانيته.

والآية الكريمة تبين أن تلك الصدقة المتبوعة بالأذىٰ وإن كانت شيئًا ماديًا محقق النفع للمتصدَّق عليه، إلا أن الكلمة الطيبة أفضل منها في ميزان الحق ﷻ ؛ إعلامًا وتأكيدًا علىٰ دور المعنويات، و مراعاة المشاعر، والجوانب الإنسانية، وبيان أهميتها في ميزان الشرع والدين.

وقد اكتسبت الآية الكريمة ثوب الأسلوب الخبري الخالي من ألوان التأكيد تناغما مع هذا المعنىٰ الجديد الذي تُضفيه في أذهان السامعين، فالنفوس استقر فيها أن الصدقات إنما تكون بالماديات فحسب، فجاءت الآية لتكشف لهم بابًا آخر لا يقل أهمية عن دور الصدقات المادية، بل ربما هو خير منها أحيانًا، وفي الآية الكريمة إلىٰ جانب ذلك تسرية بالغة ، وتعزية واضحة، وفتحٌ لباب الأمل عند هؤلاء الذين لا يجدون ما ينفقونه لكي يحصلوا هذا الثواب العظيم الذي أبانت عنه الآية السابقة في جزاء

(١) سورة البقرة:٢٦٣.

المتصدقين: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) وهذا الأمل بشيء يملكه الجميع، وهو ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ .

وهذا المعنىٰ الموجز الذي تحمله تلك العبارة القرآنية استفاضت في بيانه السنة النبوية فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، ....الحديث)) (٢).

وهذا الإطناب الذي بدا في طابع الحديث مما يتناسب مع مراعاة حال هؤلاء القوم الذين جاءوا ليبثوا شكواهم إلىٰ رسول الله ، بقلة ذات اليد التي أقعدتهم عن الإنفاق في سبيل الله، واللحاق بركب الأغنياء في تحصيل هذا الأجر العظيم، الذي هو من ثمار ما يتصدقون به، فكان من المناسب أن يفتح لهم النبي، المجال، ويعدد لهم الأبواب المتاحة لدي الجميع والتي يتحصَّلُون بها هذا الثواب، بخلاف أسلوب الآية الكريمة فغلب عليه طابع الإيجاز؛ لأنها جاءت في معرض إرشاد المسلمين إلىٰ آداب الصدقة، ووجوب الإمعان والتحري في بعدها عن كل ما يمس المتصدَّق عليه بأذىٰ أو مَنٍّ، بل كان هذا المعنىٰ هو الأساس الذي ألحَّ السياق علىٰ تأكيده وبيانه بشتىٰ الصور، مرة في الآية السابقة ،﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾(٣)

---

(١) سورة البقرة:٢٦٢

(٢) صحيح مسلم ،لمسلم بن الحجاج ، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف، ح(١٠٠٦) (٢/ ٦٩٧)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

(٣) سورة البقرة:٢٦٢.

وأخرىٰ في هذه الآية ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[1]، وثالثة في الآية بعدها القاطعة ببطلان تلك الصدقات ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[2].

والآية الكريمة وإن اشتركت مع الهدي النبوي في بيان أن العطاء المادي ليس هو كل أبواب الصدقات، إلا أنها تركز علىٰ وجوب خلوصها من كل ما يشوبها من أذىٰ المتصدَّق عليه ، ومن هنا أبانت في عبارة موجزة عن هذا المعنىٰ وأرشدت إلىٰ ما هو خير منها، وجاءت به في صدرها ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾[3] ؛ ليكون أول ما يقرع السمع ويُلفت الانتباه إلىٰ هذا الباب من الصدقات الغائبة عن الأذهان، أو التصرف الأمثل والأعظم الذي يحصِّل به العبد من الثواب ما هو خير له، وخير للمتصدق عليه بصدقة متبوعة بالمن عليه والأذىٰ له.

ووصف القول بالمعروف في سياق الآية الكريمة يفتح المجال لشمولية الإطناب الذي بدا في بيانه ، ؛ ليدخل فيه كلُّ قول يتصف بالمعروف، وهذا يشمل كل قول جميل متعارف عليه يوجَّه للسائل من شأنه أن يجبر خاطره، ويُطيِّب نفسه، ويحفظ كرامته، وقد تعددت أقوال المفسرين في بيانه ، وكلها لا يخرج عن هذا المعنىٰ، فقيل: "قول جميل ودعاء الرجل لأخيه المسلم"[4].

وقيل: "يعني قولًا حسنًا بدلًا من المن والأذىٰ، و يحتمل وجهين: أحدهما أن يُدْني أن أعطي، والثاني: يدعو إن منع"[5]، وقيل: أيُّ كلامٍ حسن،

(١) سورة البقرة:٢٦٣.
(٢) سورة البقرة:٢٦٤.
(٣) سورة البقرة:٢٦٣.
(٤) جامع البيان للطبري: ٥/ ٥٢١.
(٥) تفسير الماوردي= النكت والعيون :١/ ٣٣٧. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان

وردٌ علي السائل جميل، ومثلُ: عدة حسنة، وقال الكلبي : دعاء صالح يدعو لأخيه به بظهر الغيب(١).

و أشمل من ذلك ما ذكره الرازي : "هو القول الذي تقبله القلوب ولا تنكره، والمراد هاهنا أن يرد السائل بطريق جميل حسن، وقال عطاء: عدة حسنة"(٢).

وتبدو دقة البيان القرآني في إيثار هذا الوصف للقول دون غيره، كقول لين، أو طيب؛ لأن ما جاء عليه النظم أشمل، وأرحب معنىً، ويتناسب مع اختلاف حال مشارب السائلين، كلٌ بحسب لغته التي يخاطَب بها، والتي يفهمها، وتَطِيبُ بها نفسه، كما يختلف بحسب بيئته، وكأن هذا اللفظ فيه دعوة وإرشاد، لمن سئل الصدقة، و لم يشأ الإعطاء، ربما لعدم وجود ما يتصدق به، أو لعدم رغبته بوجوب تحري كل ما هو طيب من القول والرد المناسب لحال كل سائل، وهذا ما لا يتحقق لو جاء التعبير القرآني بأي وصف آخر لهذا القول.

ولما كان مقام الآية في وجوب تطهير الصدقة من أن يشوبها أي رائحة من أذىً المتصدق عليه، جاءت خصوصيات نظمها الشريف مراعية لهذا المعنىً، وداعية إلىٰ تحقيقه، وحاثة للمتصدِّق علىٰ وجوب تحري هذا المعنىً، ويظهر ذلك في لغة التنكير البادية في معظم مفردات النظم، فتنكير

(١) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفىٰ: ٥١٠هـ) : ١/ ٣٦٠ . تحقيق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

(٢) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٧/ ٤٢ .

(قول) وإن هيأ للوصف المراد، فيه -أيضًا- تفخيم وتعظيم لهذا القول ، وأنه يفوق في ميزان الثواب عند الله أية صدقة مهما بلغت قيمتها، وعظم عطاؤها ما دامت مصحوبة بشيء من المنِّ والأذىٰ، ومن عطاء هذا التنكير -أيضًا- أنه يفتح المجال لاتساع كل قول يدخل في باب المعروف من شأنه أن يحقق السرور في قلب السائل، وتطيب به نفسه، ولو جاء النظم بالتعريف، فقيل: القول المعروف... لفات هذا المعنىٰ، ويذكر الشيخ الطاهر بن عاشور أن سر هذا التنكير " للتقليل أي أقل قول معروف خير من صدقة يتبعها أذىٰ"(١)، وهذا المعنىٰ يئول إلىٰ التعظيم والتفخيم أيضًا، فإذا كان أقل قول خير من صدقة يتبعها أذىٰ، فهو عظيم لا محالة، وعلىٰ كلا المعنيين فهذا التنكير يتفاعل مع ما يرمي اليه النظم الكريم من غلق باب تلك الصدقات التي من شأنها أن تلحق أي شائبة من الأذىٰ تجاه المتصدق عليه، ويفتح كل أبواب الكلمة الجميلة الحسنة التي تُرضي نفس المتصدق عليه، وتجبر خاطره.

كما جاء تنكير (صدقة) في هذا النظم الكريم ليضفي عليها القبح والذم، فهي صدقة منكرة، مجهولة الثواب ومحققة العقاب، ينبغي ألا يكون لها وجود في ساحة الصدقات، كما هيأ هذا التنكير لوصفها بجملة ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ فوق ما أعطاه من سمت الإيجاز الذي لا يتحقق لو قيل: خير من الصدقة التي يتبعها أذىٰ، وتنكير (أذىٰ) للتقليل، أي: خير من صدقة يتبعها أدنىٰ أذىٰ ولو هينًا في نظر المتصدِّق فإنه يقلل من عطاء ثواب صدقته، بل يكاد يسقطه ويمحوه ، حثا بالغا علىٰ وجوب انعدام هذا اللون من الصدقات التي من شأنها أن تجرح مشاعر السائل بأدنىٰ شيء من الأذىٰ .

(١) التحرير والتنوير : ٣/ ٤٧ .

وكان من عطاء هذا التنكير في (أذىٰ) -أيضًا- أنه أتاح أن تكون تلك الصدقة في جانب المفضل عليه، فهو مع كونه أذىٰ بسيطًا في نظر المتصدِّق، وقد يُخيلَّ إليه أنه لا يُعتد به، ولا يؤثر في قبول صدقته، ودرجة ثوابها ، إلا أنه أثر عليها تأثيرًا بالغًا، وجعل الكلمة الطيبة الحسنة تفوقه في الثواب، وتكون في جانب المفضَّل ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾(١) وأسلوب التفضيل صريح وواضح بأن هذه الصدقة لا تخلو من الخيرية ، وأنها متحققة في الطرفين، ولكنها في قول المعروف والمغفرة، أثقلُ وأعظم وأدخل في الخيرية، بل هي من أحب الصدقات إلىٰ الله – عز وجل- .

ووراء هذا الأسلوب دلالة واضحة علىٰ أن مراعاة الجوانب المعنوية التي هي من ثمار قوله - سبحانه- ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ أعظم عند الله، وأبر بحال المتصدق عليه ومراعاة نفسيته ومشاعره من تلك الصدقة المتبوعة بشيء قليل من الأذىٰ، وإنما لم تُسقط الآية ثواب تلك الصدقة بالكلية؛ مراعاة لدور الصدقات المادية في عجلة الحياة، ومراعاة حاجة المتصدَّق عليه إليها.

ويعضَّد من حمل أفعل التفضيل (خير) علىٰ بابها من اشتراك طرفي المفاضلة في الصفة، مع كمالها في الطرف الأول دون الثاني أن الآية التي بعدها التي أبطلت صراحة بأسلوب النهي الجازم ثواب هذا النوع من الصدقات عبَّرت بلفظ الأذىٰ معرفًا، وأضافت إليه صفة ذميمة أخرىٰ في الإيذاء والضرر، وهي (المن) فقال -جل شأنه- منبهًا للأذهان، وملفتا للقلوب:

(١) سورة البقرة:٢٦٣.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾(١)، وأضافت إليها بُعدًا آخر يُبطلها، ويسقط ثوابها من خلال هذا التشبيه المنفِّر من المن والأذىٰ؛ حيث شبه – سبحانه– المتصدِّق المتصف بهما بحال المرائي الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾(٢) ؛ زجرًا بليغًا علىٰ انعدام هذا اللون من الصدقات، وتبرئة الحياة من وجوده، وإلحاقًا بأصحابه إلىٰ هذا الجنس من المرائين وبئس هذا الصنف في ميزان الشرع والدين(٣)

وعن وجه خيرية قول المعروف والمغفرة علىٰ الصدقة التي يتبعها أذىٰ، يقول الرازي: " إنه أي المتصدق إذا أعطي ثُمَّ أَتْبَعَ الْإِعْطَاءَ بِالْإِيذَاءِ، فَهُنَاكَ جَمْعٌ بَيْنَ الْإِنْفَاعِ وَالْإِضْرَارِ، وَرُبَّمَا لَمْ يَفِ ثَوَابُ الْإِنْفَاعِ بِعِقَابِ الْإِضْرَارِ، وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ فَفِيهِ إِنْفَاعٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِيصَالَ السُّرُورِ إِلَىٰ قَلْبِ الْمُسْلِمِ وَلَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ الْإِضْرَارُ، فَكَانَ هَذَا خَيْرًا مِنَ الْأَوَّلِ" (٤).

ويذكر ابن القيم أن " القول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة

(١) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٤

(٣) وجاءت السنة النبوية لتعضِّد هذا المعنىٰ وتنفِّر تنفيرا شديدا من هذه الصدقات فعن أبي ذر – ‘–((ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ ولهمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ، ثَلاثَ مِرَارًا قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا! مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ.)) أخرجه مسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف)، رقم: (١٠٦).

(٤) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٧/ ٤٢ بتصرف يسير.

المقرونة بالأذىٰ حسنة مقرونة بما يبطلها. ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة" (١).

وتختم الآية بجملة التذييل (والله غني حليم)؛ ترهيبًا ووعيدًا بالغًا ولطفًا حالمًا لأصحاب مثل تلك الصدقات، فسبحانه غنىٰ عنها حليم عليهم، فلا يؤاخذهم بالعقوبة؛ فتحًا لباب التوبة أمامهم، ودفعًا لهم إلىٰ قول المعروف، فهو أفضل عنده – سبحانه– .

(١) تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، لابن قيم الجوزية : ١/ ١٦٠، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٠ هـ

٣- وصف القول بالمعروف في سياق الوصية باليتامى

جاء وصف القول بالمعروف في سورة النساء في موطنين قريبين يكادان أن يكونا في سياق واحد، والموطن الأول في سياق الوصية باليتامىٰ إذا طرأ عليهم عارض السفة[١] وفيه يكشف السياق عن كيفية تعامل الأوصياء معهم من حيث التصرف في أموالهم يقول – سبحانه– : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٢].

و سورة النساء سورة تدعو إلىٰ بناء المجتمع الإسلامي في صورة قوية مترابطة، نابعة من تقوىٰ الله ﷻ مصدر الفضل والإنعام علىٰ الناس جميعا، كما تهدف إلىٰ صيانة المسلمين عن كل ما يمكن أن يؤثر في علاقتهم، ويفت في كيان جماعتهم، ومن هنا سلطت الضوء في بدايتها علىٰ هذا العنصر الضعيف الذي لا يملك لنفسه حولًا ولا قوة، وهم اليتامىٰ، وقد يكون ضعفهم دافعًا لبعض النفوس المريضة إلىٰ الاعتداء عليهم ، وعدم مراعاة

---

(١) هذا علىٰ أن المراد بالسفهاء في الآية : اليتامىٰ الذين لا يملكون حسن التصرف في أموالهم، وفي الآية عدة أقوال أخرىٰ في المراد بالسفهاء، ترتب عليها اختلاف آخر في توجيه الخطاب بالنهي أعامٌّ هو أم خاص بأولياء اليتامىٰ ؟ ذكر هذه الوجوه الشيخ الرازي في تفسيره ، ورجح أن تكون الآية خطابا للأولياء في الحث علىٰ اليتامىٰ السفهاء ، وعقب عليها بقوله : " ولاشك أن هذه الوصية بالأيتام أشبه ؛ لأن المرء مشفق بطبعه علىٰ ولده فلا يقول له إلا المعروف، وإنما يحتاج إلىٰ هذه الوصية مع الأيتام الأجانب ". التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي : ٩/ ٤٨٤.
وأكثر العلماء علىٰ أن الخطاب للأولياء. ينظر: البحر المحيط :٣/ ٤٨٨ –٤٨٩ .
وينظر: تفسير النيسابوري= غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري تحقيق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٦ هـ :٢/ ٣٥٠.

(٢) سورة النساء:٥.

حقوقهم، فجاء صدر السورة ليوجه المسلمين إلىٰ وجوب إعطاء أوصياء اليتامىٰ أموالهم إذا بلغوا الرشد فقال -سبحانه-: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾(١)، ولكن قد يكون هؤلاء اليتامىٰ -حتىٰ إذا بلغوا - ليسوا أهلا للتصرف في تلك الأموال، ولا تتوفر فيهم أهلية التملك لها ، ومن هنا جاءت الآية بعد ذلك لتعالج هذا الأمر، فقال - سبحانه- : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

وقد اكتسىٰ صدر الآيتين ثوب طباق السلب بين (وآتوا)و(لا تؤتوا)، كما جاء الخطاب في ثوب الأسلوب الإنشائي في الموطنين في صورة الأمر والنهي، مما يضفي علىٰ المقام صورة الحزم والجد في التعامل، فلا تواني ولا تراخي في إعطاء اليتامىٰ أموالهم عند رشدهم ولا تهاون أو تساهل في إعطائهم أموالهم إذا فقدوا أهلية التصرف في تلك الأموال، وقد سلك نظم الآية هذا الأسلوب الإنشائي (النهي) بصورته الحاسمة القاطعة؛ لأن بعض نفوس الأوصياء علىٰ هؤلاء اليتامىٰ قد يتحرَّجُون من إبقاء وصايتهم علىٰ أموال هؤلاء اليتامىٰ بدافع خشية الله ﷻ ، أو بدافع نظرة المجتمع إليهم وتعرضهم للقيل والقال من الناس، ومن ثم جاءت الآية لتعالج الأمر من كافة جوانبه وأرشدت الأوصياء إلىٰ ثلاثة أشياء، جاءت في ثوب الأمر ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾(٢) وهذه الثلاثة مما يحتاجها حال هذا اليتيم الذي زالت عنه أهلية التصرف بسفهه، "والسفيه الجاهل الضعيف الرأي،

(١) سورة النساء:٢.

(٢) سورة النساء:٥.

القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار، ولذلك سمىٰ الله ﷻ النساء والصبيان سفهاء"(١).

وإنما أضاف الحق – سبحانه– المال إلىٰ الأوصياء فقال: (أموالكم)، مع أن المال في الأصل لليتامىٰ الذين تحت وصايتهم؛ لأنهم لما صار هذا حالهم فقدوا أهلية التصرف في تلك الأموال، فأضيفت في اللفظ إلىٰ الأوصياء، يقول الرازي: "أضاف المال إليهم لا لأنهم ملكوه، ولكن من حيث ملكوا التصرف فيه، ويكفي في حسن الإضافة أدنىٰ سبب" (٢). والمقصود من ذلك "الاحتياط في حفظ أموال الضعفاء والعاجزين" (٣).

وذكر ابن عطية: "وأضافها إلىٰ المخاطبين تغبيطًا بالأموال، أي هي لهم إذا احتاجوا كأموالكم لكي تقىٰ أعراضكم وتصونكم ، وتعظم أقداركم، ومن مثل هذا ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾(٤) وما جرىٰ مجراه"(٥).

وهذا من التناسب لحال اليتيم وحال الوصي ذاته، إذ ربما يدفع يتمُ المحجور عليه، وما لحق به من سفهٍ الوليَّ إلىٰ إثارة الشفقة في قلبه، ويكون ذلك دافعًا إلىٰ إعطائه أمواله، فكان لابد من المبالغة التي أفادتها تلك الإضافة (أموالكم) حتىٰ تكون مانعًا قويًا له من إعطائه هذا المال، بخلاف حالهم عند البلوغ؛ ولذا أضيفت الأموال إليهم صراحة ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾(٦) عند الأمر بالإعطاء.

---

(١) جامع البيان للطبري:١/ ٢٩٣.

(٢) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي : ٩/ ٤٨٤ ، وينظر: الكشاف : ١/ ٤١٤ .

(٣) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي : ٩/ ٤٨٤.

(٤) سورة النساء:٢٩.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لـ ابن عطية :٢/ ٨ .

(٦) سورة النساء:٢.

وقد ذيلت هذه الأوامر الثلاثة بالأمر بقول المعروف لهؤلاء اليتامىٰ، وقد جاءت مناسبة لحالهم، وما تقتضيه طبيعة ظروفهم، والأمر الأول ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ إرشاد للأوصياء إلىٰ بذل ما يتعلق بتلبية ضروراتهم وحاجاتهم من مأكل، ومشرب، ومسكن، وصحة، وتعليم، وغير ذلك مما يحتاجونه ، وقد جاءت كلمة (وارزقوهم) لتشمل كل هذه الجوانب وغيرها، وقد بدت دقة النظم القرآني بادية في تلك المغايرة اللفظية من التعبير بحرف الظرفية (وارزقوهم فيها) دون حرف التبعيض (وارزقوهم منها)؛ وذلك لأن ما جاء عليه النظم يوحي بما ينبغي أن يكون، وهو أن تكون أموالهم منبعا لجلب الرزق إليهم، ولا يكون ذلك إلا بتنميتها واستثمارها، وتكون عوائد ذلك محلًا لرزقهم، دون العيش علىٰ أصل المال ذاته فيذهب ويضيع بالنفقة، وهو ما يوحي به حرف التبعيض، وهذا المعنىٰ أشار إليه الشيخ الزمخشري، فقال: "وارزقوهم فيها واجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتىٰ تكون نفقتهم من الأرباح، لا من صلب المال ، فلا يأكلها الإنفاق" (١).

ثم ثني – سبحانه– فقال : (واكسوهم) وهذا من عطف الخاص علىٰ العام، فهو داخل فيما يرزقونه، وفيه تنبيه إلىٰ أهمية هذا الخاص؛ مراعاة لحال هؤلاء اليتامىٰ، و ما أصابهم من سفه وخفة عقل، واضطراب فكر ، وربما كان ذلك سببًا في عدم تجمُّلهم البدني بالكسوة اللائقة، ومن هنا كان التنصيص عليها في النظم، دون الاكتفاء بما جاء في حيز العام.

(١) الكشاف: ١/ ٤١٤ . وينظر: البحر المحيط:٣/ ٤٨٨ . وينظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د/ محمد الأمين الخضري : ص ١٤٩ – الطبعة الأولىٰ- ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

ومازال النظم الكريم يراعىٰ أحوالهم فقال – سبحانه– : ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ؛ و ذلك لأن التوجيهين السابقين يراعيان حاجتهما المعيشية والجسدية، وتبقىٰ مراعاة الحالة النفسية التي تُطَيِّب خاطرهم، وتجبر نفوسهم، وتمسح ألم اليتم والمرض الذي ألمَّ بهم، ومن هنا جاءت فاصلة الآية الكريمة مشتملة علىٰ هذا الأدب السماوي الراقي في التعامل معهم، ومناسبة لحالهم غاية المناسبة، ومتممة لمراعاة كافة الجوانب التي يحتاجها أمثال هؤلاء؛ لأنهم أحوج إلىٰ ما يراعي مشاعرهم ويعينهم علىٰ تجاوز محنتهم ، وهذا ما لم تتضمنه فاصلة الآية السابقة التي أمرت الأولياء بإعطاء اليتامىٰ أموالهم حيث ختمت بهذا التهديد الناطق والوعيد البالغ والتحذير البارق بالتخويف﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾(١)؛ تناسبًا بليغًا لحال اليتامىٰ في كل آية.

يقول الرازي: " إنما أُمِر– أي الولي– بذلك؛ لأن القول الجميل يؤثر في القلب فيزيل السَّفه، أما خلاف القول المعروف فإنه يزيد السفيه سفهًا ونقصانًا" (٢).

والقول المعروف: "ما تألفه النفوس وتأنس له ويقتضيه الشرع" (٣). وقيل: "أراد تليين الخطاب والوعد الجميل" (٤). وقيل: "عدة جميلة تطيب بها نفوسهم" (٥).

---

(١) سورة النساء:٢.

(٢) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي:٩/ ٤٨٤.

(٣) البحر المحيط:٣/ ٤٨٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :٥/ ٢٧.

(٥) تفسير البيضاوي:٢/ ٦٠.

وفي تقييد هذا القول بهذا الوصف خاصة في هذا المقام دون : (وقولوا لهم قولًا حسنًا ، أو طيبًا أو لينًا) فيه طلاقة في اختيار القول بما يتناسب مع العرف ويقتضيه حال هذا اليتيم وحاجته النفسية سواء بالكلمة الطيبة، أو الدعوة الخالصة، أو الإقرار أمامه والتذكير له بأن هذا المال إنما هو مالُه في الأصل، ووعده بأنه سيئول إليه عند شفائه، كلٌ بحسب حاله، وهذا يتناسب مع وصف القول بالمعروف تمام المناسبة؛ إذ قيل المعروف " اسم لكل فعلٍ يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر ما ينكر بهما" (١).

(١) المفردات: ٣٣٤.

٤- وصف القول بالمعروف في سياق حث الوارثين على إعطاء ذوي القربى واليتامى والمساكين شيئًا من التركة

قال –تعالىٰ– : ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (١).

والسياق هنا مختلف عن سياق المقام السابق، فالآية السابقة تتعلق بصنف خاص من اليتامىٰ، وهم الذين لحق بهم السفه المانع لهم عقلًا وشرعًا من أهلية التصرف في أموالهم، ولذا كان التوجيه المباشر بالنهي الصريح للأولياء بعدم إعطائهم أموالهم﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾(٢)، بينما هنا السياق يتعلق بحالة أخرىٰ، وهي توزيع التركة علىٰ الوارثين، وقد يصادف ذلك حضور ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين من غير الورثة، فجاءت الآية الكريمة لترشد الوارثين إلىٰ ما ينبغي أن يكون من إعطاء هؤلاء شيئًا ولو بسيطًا مما ورثوه(٣)؛ وذلك حتىٰ يستلُّوا من نفوسهم نزعة الحقد عليهم، والحسد لهم من هذا المال الذي ورثوه، وربما لم يكن لهم فيه كد أو تعب، ومن هنا كان من المناسبة بمكان توجيه الوارثين إلىٰ هذين الأمرين الجليلين ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو يجمع بين العطاء المادي متمثلا في الرزق، والعطاء المعنوي ممثلا في الكلمة الطيبة التي تجبر الخاطر،

---

(١) سورة النساء:٨.

(٢) سورة النساء:٥.

(٣) وذلك علىٰ سبيل الندب، وليس علىٰ سبيل الفريضة، وعلىٰ سبيل الاستحباب لا الإيجاب. ينظر: أحكام القرآن للجصاص :٢/ ٩٢ ، تحقيق : عبد السلام محمد علي شاهين– الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– ط أولىٰ – ١٤١٥ هـ –١٩٩٤م. وينظر: الكشاف : ١/ ٤١٧ . بخلاف الأوامر الثلاثة في الآية السابقة فأراها جاءت علىٰ سبيل الوجوب والإلزام .

وتلين القلوب، وتؤلف النفوس، وتستل نزعة الحقد تجاههم، وبذلك جاءت فاصلة الآية الكريمة متناغمة مع المقام، قارة في مكانها، متمكنة بنظمها البليغ.

و القول المعروف هنا: " أن يلطفوا القول، ويقولوا: خذوا بارك الله عليكم، ويعتذروا إليهم ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يستكثروها، ولا يمنوا عليهم" (١).

وفي إيلاء الأمر بالرزق بهذا الأمر الداعي للورثة إلىٰ الجميل من القول ما يشبه الاحتراس؛ إذ يُشعر بما يجب عند الإعطاء من أنه ينبغي أن يكون مصحوبًا بطلاقة الوجه، والكلمة الطيبة، ومشاعر المحبة الخالصة، بعيدًا عن كل ما يُشعر بالمن والاستعلاء والأذىٰ، أو يكون" الرد الجميل بقول حسن غير فاحش ولا قبيح عند إمكان الإعطاء" (٢)، أدب سماوي راق، ومعالجة طيبة ربانية من رب العالمين -سبحانه- تتناغم مع طبيعة المقامين(٣) وحالِ من نزل في شأنهم هذا البيان، وتتناسب مع ما تهدف إليه السورة الكريمة من جعل الإنسانية كلها كالأسرة الواحدة في الترابط، والتراحم ، والوصال، والمحبة، والتآلف.

(١) الكشاف : ١/ ٤١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

(٣) تتبدىٰ بعض الفوارق في النظم بين الآيتين ، مثل ذكر الأمر (واكسوهم) ، في الآية الأولىٰ ، بينما خلت الآية الثانية من ذكره . ينظر في ذلك : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ للغرناطي: ١/ ٩٩ ، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ومثل : (فارزقوهم فيها) و (ارزقوهم منه) ، وبيانُ مثل هذه الفروق لا يتسع المقام لذكرها ؛ لأنها بعيدة عن طبيعة تلك الدراسة.

٥-وصف القول بالمعروف في سياق توجيه أمهات المؤمنين بعدم الخضوع في القول

جاء وصف القول بالمعروف في سورة الأحزاب في قوله -جل شأنه-:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾(١)

والآية الكريمة جاءت في ظل عدة توجيهات لأمهات المؤمنين تكشف عن الطبيعة الخاصة التي منحهن الله ﷻ إياها، والتي تتناسب مع مكانتهن، فهن أمهات المؤمنين، و أزواج النبي ، ، وإذا كان النبي قدوة للمؤمنين، فهن قدوة للنساء المؤمنات؛ ولذا وُجِّه الخطاب إليهن تأسيا لغيرهن بهن، إذ غيرهُن مأمورات بذلك من باب أولىٰ.

وفي الآية ينهىٰ – سبحانه- أمهات المؤمنين عن الخضوع في القول وهن يخاطبن الأغراب من الرجال ، حتىٰ لا يكون مدخلًا لإثارة الطمع وتهييج الفتنة في قلوبهم، ثم ختمت بإرشادهن إلىٰ ما يجب أن يكون من القول.

وهذا التوجيه من رب العالمين – سبحانه- ليس بعيدًا عن السياق العام للسورة، والمعاني التي جاءت في أعطافها، فالسورة تناولت باستفاضة بالغة لا توجد في غيرها من السور حادثة الأحزاب حينما تآلبوا علىٰ رسول الله ، والمسلمين، وتظاهروا جميعًا ضد الدعوة ؛ أملًا في القضاء عليها وتنكيس رايتها، ومن ثم كان من المناسب أن تكشف عن الأسباب التي تؤدي إلىٰ ذلك، ومن بينها ما أشارت إليه الآية الكريمة، والسياق الذي جاءت فيه من خطورة فتنة النساء، فهن حبائل الشيطان، ومتىٰ شاعت فتنتهن في المجتمع كان نذير الخطر بضعفه وهوانه وذله ، وتطلع الأعداء للانقضاض عليه

(١) سورة الأحزاب:٣٢.

والنيل منه ، وقد بيَّن النبي ، خطورتهن في قوله: ((ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء)) (١)، والآية سلطت الضوء علىٰ هذا الجانب في صورة النهي الصريح لأمهات المؤمنين ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وقبل هذا النهي جاء النداء اللافت المثير للانتباه والداعي إلىٰ اليقظة، والدال علىٰ أهمية ما يأتي بعده وخطورة شأنه، والذي يذكرهن بهذا الشرف العظيم ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ والمشروط بقوله : ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ وهو تقيات طاهرات نقيات بلا شك، ولكن جاء الشرط إلهابًا لهن، وحثًا وتهييجًا علىٰ تحصيله والمداومة عليه، وذلك من أجل تحصيل تلك الأفضلية، والقيام بحق تلك المكانة العظيمة.

ثم رتَّبت الآية الكريمة علىٰ ذلك أسلوبين إنشائيين، هما الغرض المقصود من تلك التهيئة، الأول: النهي في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ والمعنىٰ: "فلا تُجِبْن بقولكن خاضعا، أي لينا خنثا مثل كلام المريبات والمومسات"(٢). أي: البعد عن لين الكلام وترقيقه، والتدلل فيه وكل ما شأنه أن يدعو إلىٰ الريبة، ويثير الشهوة في قلوب الرجال، ويكون باعثًا إلىٰ الطمع فيهن ، والتعبير بالطمع "للدلالة علىٰ أن أمنيته لا سبب لها في الحقيقة؛ لأن اللِّين في كلام النساء خلقٌ لهن، لا تكلُّف فيه" (٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقىٰ من شؤم المرأة، ح(٤٨٠٨) (٥/ ١٩٥٩)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

(٢) الكشاف:٣/ ٥٦٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: ١٥/ ٣٤٤، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م.

ثم أرشدهم – سبحانه– إلىٰ ما هو مطلوب بأسلوب الأمر ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ والعلاقة بين الأسلوبين علاقة تضاد؛ إذ لما نهىٰ –سبحانه– عما هو محذور بيَّن ما هو ممكن ومباح ، وقد بدت دقة البيان القرآني عن تلك الإبانة من عدة وجوه: أن تلك الجملة التي جاءت فاصلة الآية الكريمة أشبه بأسلوب الاحتراس البليغ؛ إذ فيها دفع لما قد يتوهم من أن النساء مأمورات بالغلظة في القول، والخشونة في الرد، فجاءت الجملة الكريمة لتدفع ذلك، وتحدد بدقة من خلال هذا الوصف الدقيق (معروفا) ما هو مطلوب فلا يكون قولهن غليظًا جافًا – وهو مما يتنافىٰ مع طبيعتهن أصلا– ولا يكون لينًا خاضعًا رقيقًا يثير الشهوات، ويجلب الفتنة، وهذا أولىٰ مما ذهب إليه الشيخ الطاهر بن عاشور : " من أن الجملة بمنزلة الاحتراس لئلا يحسبن أن الله كلفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار"(١) ، إذ ليس في السياق ما يدل عليه. كما يدفع ما ذهب إليه أيضا من أن تلك الجملة بمنزلة التذييل (٢)، وهذا من الخلط البين بين الفنون البلاغية، وهو كثير عند الشيخ رحمه الله .

كما أن وصف القول بتلك الفاصلة (معروفا) مما يفسح المجال لكل قول حسن محمود غير منكر يعرف بعفته وطهارته، جاء النطق به طبعيًا بعيدًا عن كل ما يثير الريبة، وينحرف عن الأخلاق الحميدة ، ويبعث علىٰ إثارة الطمع في قلوب الرجال، وهذا يشمل ويتسع لكل ما فسره به السادة المفسرون فقيل:" ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أذن الله لكم به وأباحه" (٣).

(١) التحرير: والتنوير ٢٢/ ٩.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٩.
(٣) تفسير الطبري:٢٠/ ٢٥٧.

وقيل:" الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس " [1]، وقيل: "أي ذكر الله وما تحتجن إليه من الكلام "[2].

ونقل أبو حيان: "قال ابن عباس: المرأة تندب إذا خالطت الأجانب عليها بالمصاهرة إلىٰ الغلظة في القول من غير رفع الصوت فإنها مأمورة بخفض الكلام . وقال الكلبي : معروفا صحيحا بلا هجر ولا تمريض . وقال الضحاك : عنيفا ، وقيل: خشنا حسنا" [3]. وقيل: "يوجبه الدين والاسلام عند الحاجة إليه ببيانٍ من غير خضوع"[4].

يضاف إلىٰ ما سبق: أن ذكر موصوف القول دون (وقلن معروفا) مما يضفي علىٰ المعنىٰ من خلال مصدر القول معاني الحسم ، والتحديد ، والحزم، والجد، والفصل، والوضوح، والقوة، وشدة الإبانة عن المراد، دون تمييع، أو تكلف وتصنع، وما يصحب كلام النساء أحيانا من غمز وإشارة، كل هذه المعاني يدفعها هذا الوصف للقول بـ(معروفا)، كما تناغم مع جلال الأوامر الإلهية المتعددة الموجهة لأمهات المؤمنين الطاهرات العفيفات في سياق السورة الكريمة.

(١) المحرر الوجيز:٤/ ٣٨١.

(٢)التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٢٥/ ١٦٧.

(٣) البحر المحيط: ٨/ ٤٧٦.

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن : ٣/ ٤٢٤، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ

٦- وصف القول بالمعروف في سياق توجيه المنافقين وعلاج نفوسهم المريضة

قال – سبحانه– :﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ (١).

الآيتان من سورة "محمد" المدنية تكشف كسائر السور المدنية جانبا من أحوال المنافقين، وهذا الجانب يتمثل في كراهيتهم لقاء الأعداء؛ لخور نفوسهم، وضعف إيمانهم، وبغضهم أن يتحقق النصر للمسلمين، وتعلو راية الدين .

وصدر الآية الأولىٰ يكشف عن تشوق المؤمنين وشدة تطلعهم إلىٰ نزول سورة تدعو إلىٰ ملاقاة المشركين، و تحتِّم عليهم وجوب القتال بأسلوب صريح واضح لا يقبل التأويل ،كما جاء في مطلع هذه السورة الكريمة في قوله –تعالىٰ– : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾(٢) فإذا نُزِّلت هذه السورة، وكان بين ثناياها معالجة لقضية الجهاد، وذُكر فيها (القتال)، هكذا صراحة، هذا الأمر الذي تبغضه نفوس المنافقين(٣)؛ لأنه الاختبار الحقيقي والعملي والمحك علىٰ صدق الإيمان ، هنا يظهر حال المنافقين جليًّا ، كما يصوره القرآن بهذا التصوير المعجز الدقيق الكاشف عن حقيقة ما تنطوي عليه

(١) سورة محمد: ٢٠-٢١.

(٢) سورة محمد: ٤.

(٣) " عن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة، وهي أشد القرآن علىٰ المنافقين " ، الكشاف : ٤/ ٢١٨.

نفوسهم من ضعف، وجبن، وخور، وهلع، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: "نظرُ مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعًا وهلعًا ولميلهم في السر إلىٰ الكفار"(١).

وهنا يعالج القرآن الكريم أحوال هذه النفوس المريضة، و يُلْفِتُهم -سبحانه- إلىٰ ما يجب أن يكون، وما هو أصلح لحالهم، يقول -سبحانه-: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وقبل الكشف عن سر وصف القول بالمعروف في هذا السياق، أشير إلىٰ أن هذا التركيب السابق ذكرت فيه كتب التفاسير والنحو أعاريب متعددة أشهرها(٢):

١- أن قوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾(٣) كلام محذوف الجزأين، إما الخبر، وتقديره :خير لهم، أو أمثل ، وهو قول مجاهد، ومذهب سيبويه والخليل، وإما المبتدأ ،وتقديره: الأمر، أو: أمرنا طاعة، أي الأمر المرضي لله تعالىٰ طاعة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٤٣.

(٢) ينظر إليها في: إعراب القرآن للنحاس : ٤/ ١٢٣ ، الناشر : منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان– ط : أولىٰ– ١٤٢١ هـ –وينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ٢/ ١١٦٢ ، وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ٥/ ١٢. وينظر: اللمع في العربية لابن جني : ١/ ٣٠، تحقيق : فائز فارس ، الناشر : دار الكتب الثقافية – الكويت، وينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري: ٢٢/ ١٧٤ ، وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٦/ ٢٤٣ ، وينظر: البحر المحيط: ٩/ ٤٦٩ ، وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي : ١٣/ ٢٢٤ .

(٣) سورة محمد:٢١.

٢- وقيل أي :أمرهم طاعة وقول معروف، أي معلوم حالُه أنه علىٰ جهة الهزء والخديعة، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر كرهوه.

٣- وقيل: هي حكاية قولهم أي: قالوا طاعة، ويشهد له قراءة أُبي: (يقولون طاعة وقول معروف)، وقولهم : هذا علىٰ سبيل الهزء والخديعة.

٤- وهذه الأقوال علىٰ اعتبار استقلال الآية الثانية، واستئناف معنىٰ جديد بها، وجملة : (فأولىٰ لهم) التي جاءت في فاصلة الآية الأولىٰ مستقلة في المعنىٰ، جاءت علىٰ سبيل الوعيد، يقول الطبري : "عن قتادة ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هذه وعيد، فأولىٰ لهم ثم انقطع الكلام، فقال: طاعة وقول معروف"(١)، ويقول الزمخشري: " أولىٰ لهم: وعيد، بمعنىٰ: فويل لهم، وهو أفعل من الولي، وهو القرب ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه" (٢).

٥- وذهب بعضهم إلىٰ أن (أولىٰ) أفعل تفضيل مبتدأ، و(لهم) صلته واللام بمعنىٰ: الباء، و(طاعة) خبر، كأنه قيل : فأولىٰ بهم من النظر إليك نظر المغشي عليه من الموت طاعة وقول معروف، وعليه ، فقد ذُكِر أحد طرفي الإسناد في فاصلة الآية الأولىٰ وذكر الطرف الثاني في صدر التي تليها.

وهذا الوجه الأخير هو ما أميل إليه و ترتضيه النفس لعدة أسباب:

١- أن هذا الوجه لا يُتكلَّف فيه تقدير محذوف، وما لا يحتاج إلىٰ تقدير أولىٰ أن يُحمَل عليه مما يحتاج، وبخاصة أنها تقديرات يبدو التكلف في كثير منها، وخاصة في الوجه الثالث مع الاستشهاد لها بقراءة أُبي : {يقولون طاعة وقول معروف} ؛ إذ يلزم فيها تقديرُ حذفين، حذفُ المسند إليه (يقولون)،

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري:٢٢/ ١٧٤.
(٢) الكشاف : ٤/ ٢١٨ .

وحذفُ أحد جزأي جملة المقول أي: أمرنا طاعة وقول معروف، ولا يخفىٰ ما فيها من تكلف كبير.

٢- كما أن دلالة لفظ (أولىٰ) علىٰ التفضيل والأولوية أظهرُ وأوضحُ من دلالتها علىٰ الويْل، أو أن تكون (أفعل من الولي) بمعنىٰ القُرْب، كما ذكر الزمخشري، والمعنىٰ علىٰ التفضيل: أولىٰ لهم من هذا الموقف المخزي الذي يظهر عليهم عند دعوتهم إلىٰ الجهاد، و عندما يُحَتَّم الأمرُ ويجد الجد طاعة وقول معروف.

٣- أن السمة الغالبة علىٰ البيان القرآني في حديثه عن المنافقين وأحوالهم هي البسطُ والتفصيل والإطنابُ ؛ تناسبًا مع نفوسهم المريضة التي تحتاج إلىٰ شرح وبيان؛ كشفًا وفضحًا لأحوالهم العجيبة، ومواقفهم البغيضة، مما يُستَبعَد معه الوجوه الأربعة الأولىٰ القائمة علىٰ أسلوب الحذف ؛ لبعدها عن سمت الخطاب القرآني في شأن المنافقين

٤- أن هذا الوجه الأخير فيه دعوه واضحة وصريحة لهؤلاء المنافقين إلىٰ تصحيح مسار إيمانهم وتغيير نفوسهم المريضة ، ومعالجة عقيدتهم الفاسدة، بإرشادهم إلىٰ ما هو أولىٰ وأنفع لهم، والمتمثل في هذه الجملة العميقة ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فهو أنجح علاج لهم ينتشلهم من مرض النفاق الذي سيطر عليهم، وملأ نفوسهم، فأصابها الهلع والفزع والذعر عند الدعوة الصريحة للقتال، وإحساسهم بأنه لا مجال حينئذ من الفرار أو التنصل.

٥- يضاف إلىٰ ما سبق أن مجيء المسند إليه (فأولىٰ) في فاصلة آية، و الوقوف عند هذه الفاصلة، مما يضفي علىٰ النظم الكريم عنصر التشويق وإثارة الانتباه لما هو أوْلَىٰ، ويجعل النفس تقف متسائلة و متطلعة إليه و متحفزة إلىٰ معرفة ، ما هو الأولىٰ؟ فإذا بالحق – سبحانه– يسعفها به بعد هذا

التشويق المتطاول، والرغبة الملحة في معرفته، فيستقر فيها ويتمكن منها أبلغ تمكن.

كما أن البدء بقوله :﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا أشبه بفصل الكلام عند مقطع مهم من مقاطع المعنىٰ مما يسلط الضوء عليه ، ويُجْذب الانتباه إليه أكثر، ويجعل النفوس أشد حرصا علىٰ امتثاله والالتزام به، وكأنه – سبحانه– يلفتهم بأنه لا غنىٰ لهم عن هذا العلاج، ويقول لهم هذا هو دواؤكم الوحيد ، وها هو يقرع أسماعكم فامتثلوه.

ولسائل أن يسأل: أليس الظاهر أن يكون النظم : (طاعة وقول معروف أولىٰ لهم) بتقديم (طاعة) ؛ إذ هي المحكوم عليه، وعليها انصباب المعنىٰ، ومعقد الكلام ويكون قوله (أولىٰ لهم) مؤخرا فهو المحكوم به علىٰ تلك الطاعة؟

وأقول : هذا في ظاهر المعنىٰ، وإنما عدل النظم الكريم إلىٰ تلك المغايرة الأسلوبية لأسرار يظهر منها :

– أن ما جاء عليه النص حقق انسجام وتوافق فاصلة الآية الأولىٰ مع الفواصل التي بنيت عليها السورة الكريمة؛ حيث بنيت فواصلها الثمانية والثلاثون علىٰ حرف الميم ما عدا فاصلتان ، و هذه النكتة البلاغية وإن بدت نكتة لفظية تنأىٰ بلاغة الذكر الحكيم عن الخضوع لها، ولا تتفق مع جوهر إعجازه، فتبقىٰ أسرار ولطائف بلاغية أخرىٰ منها:

– أن معقد المعنىٰ ومصبه ليس بتقديم لفظ طاعة، كما يتطلبه ظاهر الكلام؛ لأن معقد المعنىٰ بيان ما هو أولىٰ وأحرىٰ إذ هو المناسب لمعنىٰ الإرشاد والتوجيه لهؤلاء المنافقين، ولذا كان حقه أن يكون هو المحكوم عليه.

- فضلا عما حققه هذا العدول من إثارة الانتباه وتشويق النفس نحو بيان ما هو أولىٰ كما بينتُ سابقا.

وهكذا نجد أن "وظيفة العدول البلاغية تتمثل في فائدتين: إحداهما عامة في كل صورة، وهي إمتاع المتلقي، وجذب انتباهه بتلك النتوءات، أو التحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير ، والأخرىٰ خاصة تتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور -في موقعها من السياق الذي ترد فيه- من إيحاءات ودلالات خاصة" (١).

وفي القول المعروف وجهان : " أحدهما هو الصدق والقبول ، والثاني : الإجابة بالسمع والطاعة " (٢).

وتنكير (طاعة) يفيد التعظيم والتفخيم من شأنها، فهي السبيل لإنقاذهم من حالة الفزع والذعر الذي ألمَّ بهم عندما يأتي داعي القتال، ولا نعدم أن يكون التنكير للنوعية ، أي طاعة من نوع معين يتسم بالانقياد لله والإذعان والتسليم المطلق له، لا طاعة تخرج من أفواههم كذبًا وخداعا وتضليلا كالتي حكاها رب العالمين عنهم في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾(٣) .

(١) استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني ، د/ عيد محمد شبايك : ٤١ ، مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – العدد الثامن – يناير -٢٠٠٤م.
(٢) تفسير الماوردي: ٥/ ٣٠ .
(٣) سورة النساء:٨١.

مـــــــوازنة:

ولسائل أن يسأل: لماذا اقتصر النظم في آية "النساء" السابقة على (طاعة)، بينما أردف عليها (وقول معروف) في آية "محمد"؟

ولعل سر ذلك أن آية "النساء" تحكي خداعهم ، وزيف دعوىٰ إعلان الطاعة، فاقتصر النظم علىٰ منطوق قولهم بما يكشف عما تضمره نفوسهم، ويوحي بما في قلوبهم ؛ ولذا قذفتها ألسنتهم سريعًا بحذف المسند إليه ، وتقديره: أمرنا طاعة، أما في سورة "محمد" فالمقام مختلف ، حيث يرشدهم- سبحانه- إلىٰ ما هو أولىٰ وأنفع وأجدىٰ لهم في هذا الموقف الكريه الذي يظهر علىٰ ملامحهم عندما تتنزل سورة ويذكر فيها القتال فاقتضىٰ ذلك أن يعاد منطوق قولهم (طاعة) تلك اللفظة التي طالما كانت عنوانا لخداعهم، وأضاف إليها ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ بصدقه ويقينه، يكشف عن طهارة القلب، ويدل علىٰ سلامة المعتقد، وصفاء النية ، وحسن السلوك؛ حثًا بليغًا، وإرشادًا قويًا واضحًا لما هو أولىٰ لهم.

كما أرىٰ أن وصف القول بمعروف في آية محمد فيه تعريض بكذبهم علىٰ الله في دعوىٰ الطاعة في آية النساء، حيث أضمروا ما يخالفها هناك، وصرَّح النظم بذلك فقال – سبحانه-: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾(١) ، وأتبعها -سبحانه- بأن ما بيتوه في نفوسهم مسجل عنده غير خاف عليه" ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾(٢)،وكأن الحق – سبحانه- من خلال هذا الوصف يحدد لهم بدقة القول المطلوب ويلزمهم

(١) سورة النساء: ٨١.

(٢) سورة النساء: ٨١.

أن يعدلوا سلوكهم الشائن، وموقفهم المخادع الذي صورته سورة النساء بدقة.

ولسائل أن يسأل: وما سر وصف الطاعة بـ (معروفة) في سورة النور في قوله تعالىٰ حكاية عن المنافقين: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] بينما وصف بها القول ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ في آية "محمد"؟

أقول : سياق آية النور فيه تأكيد بالقسم المغلظ بذل فيه المنافقون كل الوسائل، وتخيروا فيه أقوىٰ الصيغ وأشدها لإقناع النبي ، بصدق دعوىٰ الخروج إلىٰ القتال إذا دعاهم إليه، ومن هنا أُمِرَ النبي، أن يقلب عليهم الدعوىٰ من أساسها، ويقتلعها من جذورها، ببيان أن طاعتهم مفروغ منها، وهي معروفة بالكذب والخداع ، ولا تحتاج إلىٰ كل هذا التأكيد، ولا مجال حينئذ إلىٰ بسط الحديث معهم وإطالته، فاقتصر النظم علىٰ ذكر (الطاعة) ووصفها بمعروفة؛ سخرية وتهكما وقرعًا لاذعًا، بينما جاء الأسلوب في آية محمد علىٰ سبيل البسط والإطناب المناسب لمقام التوجيه والإرشاد، وبيان ما هو أولىٰ من خلال الإخلاص القلبي المتمثل في الطاعة ، والإذعان الظاهري المتمثل في قول المعروف.

ثم له أن يسأل – أيضًا – : لماذا قدم النظم هنا (طاعة) وعطف عليها (قول معروف) بينما في سورة البقرة تقدم (قول معروف) وعطف عليها (ومغفرة)؟

---

(١) سورة النور:٥٣

أقول: السياق أيضا مختلف، فآية البقرة تركز علىٰ الجانب القولي المتمثل في الكلمة الطيبة الحسنة التي تراعي مشاعر السائل، وترده مجبور الخاطر، ولذلك تقدم القول فيها، وأضيف إليه (مغفرة) فربما يتجاوز السائل في رده، و يخطئ في حق المسئول. ومن هنا كان من المناسب تذكيره بأن يغفر له تلك الذلة، ويستر عليه شدة حاجته وقوة إلحاحه في الطلب، أما في سورة "محمد" فالسياق يركز علىٰ ما به صلاح تلك النفوس المخادعة، وهذا يبدأ من صلاح الباطن المتمثل في الطاعة الحقيقية لله ورسوله وتعاليم الدين وتكاليفه التي من أشقها علىٰ نفوسهم القتال وملاقاة الأعداء، ومن هنا قُدِّم لفظ (الطاعة) في تلك الآية الكريمة، فإذا كان الشأن في سنن العرب في كلامهم "أنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أَعْنىٰ، وإِن كانا جميعًا يُهمَّانِهم ويَعْنيانِهم"(١). فهذا النهج البلاغي في كتاب الله أبين وأوضح.

وعطف (قول معروف) علىٰ (الطاعة) من عطف الخاص علىٰ العام ، إذ هو داخل في جنس الطاعة؛ وذلك لما له من أهمية في صدق طاعتهم ؛ لأن المنافقين من شأنهم كثرة الأقوال التي لا يتفق ظاهرها مع باطنهم، أما هنا فالمطلوب (قول معروف) يثبت من خلاله تغيير منهجهم، ويُعرف به صدقهم من كذبهم؛ وإذعانهم من خداعهم وزيفهم.

ووراء وصف القول بـ (معروف) إشعار بأن طريق النجاة واضح وظاهر ومعلوم، وهو أن يتفق ما ينطق به لسانهم مع الطاعة الحقيقية القائمة علىٰ الاستسلام المطلق لله، والانقياد لتعاليمه، وعندئذ يستوي الظاهر مع الباطن، وهذا هو الإيمان الحقيقي، بخلاف إيمانهم المدَّعي القائم علىٰ الخداع

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ١٠٧، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

والكذب، والذي أبانت عنه سورة النور حكاية عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) ، فالعبرة بالمواقف وليس بالادعاءات المخادعة الجوفاء.

كما ألمح مقابلة معنوية بين (أولىٰ لهم طاعة وقول معروف) وقوله : (ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) فهنا ضعف، وذعر، وخور، وتهافت، وتخاذل، وهناك ثبات ، وطمأنينة، و انقياد، واستسلام.

كما ظهرت دقة الأداء القرآني في إيثار التعبير بالجملة الفعلية (ينظرون) لاستحضار تلك الصورة الخائرة الفزعة المضطربة أمام الأعين ، بينما جاء التعبير بالاسمية في الطرف الثاني من المقابلة؛ دلالة علىٰ ثبوت المنهج، وأنه لا يتغير ولا يتخلف، ولا يلائمه تلك النفوس التي تتلون، وإذا ثبتت تلك النفوس علىٰ المنهج كان حالها كما ختمت الآية ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾(٢) .

تعقيب:

جاءت مقامات وصف القول بالمعروف كلها في السور المدنية، وقد جاء هذا الوصف ليس متناغمًا فحسب مع سياق السورة التي ورد فيها، سواء كان علىٰ مستوىٰ السياق القريب، أو الكلي، بل جاء متناغمًا مع طابع السور المدنية – أيضًا– ، وما ترمي إليه من ضبط حركة السلوك بما يتوافق مع قيم المجتمع الجديد الناشئ القائمة علىٰ مبادئ المحبة، والعفو، والفضيلة، والعفة، والطهارة ، وهذا ما بدا جليًّا في المقامات الستة

(١) سورة النور:٤٧.

(٢) سورة محمد:٢١.

ففي المقام الأول من سورة البقرة جاء وصف القول بالمعروف ليحدد سلوك هذا الرجل الذي تطلعت نفسه إلىٰ الارتباط بتلك المرأة المعتدة؛ بحيث يُعرِّض بمقصوده، دون خروج عن آداب الحشمة ،والوقار، والأدب، والفضيلة، ولا يخدش الحياء العام، ويعرض المرأة للقيل والقال، أدب قرآني رفيع ، ومعالجة ربانية سامية لهذا الظرف الإنساني الطارئ .

وفي المقام الثاني من السورة ذاتها، جاء وصف القول بالمعروف ؛ إعلاء لقيم المساواة، ونشر المحبة، ودرأ بذور الكراهية والشعور بالألم الذي قد تسببه الصدقة المؤذية، فجاء القول موصوفا بالمعروف ليعلن عن البديل في سمو راق، وتناغم بديع مع الهدي النبوي الذي أبان فيه ، عن أن ((الْكَلِمَة الطّيبَة صَدَقَة)) (١)، وغير ذلك من أحاديث هذا الباب.

وفي المقام الأول من سورة النساء جاء وصف القول بالمعروف متناغما مع قيام المجتمع الجديد علىٰ رباط التقوىٰ، وإعلاء صوت الإنسانية، التي تجعل المسلمين كالأسرة الواحدة التي يحرص الفرد فيها علىٰ الجماعة المسلمة عمومًا، وعلىٰ الضعفاء منهم خصوصًا، ومنهم اليتامىٰ، وبخاصة إذا طرأ لهم ما قد يمنع من إعطائهم أموالهم عند رشدهم، فجاء وصف القول ليطيِّب من خاطرهم، ويعدهم بإعطاء تلك الأموال لهم عند زوال هذا العارض.

وفي المقام الثاني من السورة : جاء وصف القول بالمعروف معالجة ربانية لنزع داء الغل والحقد والحسد من نفوس ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين إذا حضروا قسمة الميراث، و تطييبا لنفوسهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، ح(٢٨٢٧) (٣/ ١٠٩٠).

وفي سورة **الأحزاب** جاء وصف القول بالمعروف في مخاطبة أمهات المؤمنين وأمرهن به؛ حثًا علىٰ العفة والطهارة، والتزاما بأدب الحشمة والوقار، وتأدية لدورهن في كونهن أسوة لنساء المؤمنين، ومنعا لما قد يثير دواعي الفتنة في قلوب الرجال

وفي سورة **محمد** جاء وصف القول متناغما مع مقامه؛ توجيهًا وإرشادًا لجماعة المنافقين لما هو أولىٰ لهم من هذا الموقف المتخاذل الكاشف عن جبنهم وضعف نفوسهم، وامتلائها بالبغض والكره لجماعة المؤمنين في مجتمع المدينة.

وبهذا يتبين أن هذه المفردة(معروفًا) التي وصف بها القول في تلك السور كانت بمثابة خيط دقيق ورابط ممتد بين تلك المقامات الستة ، وكان لها أثرها البالغ في ترسيخ المعاني السامية، والأخلاق الفاضلة التي يحتاجها هذا المجتمع الجديد، وهذا يؤكد ما ذهب إليه أحد الأساتذة المجتهدين من أن "النظر البلاغي في السياق القرآني ليس مجاله الدائرة الصغرىٰ من دائرة السياق، ومن اقتصر عليه يكون قد غبن الدرس البلاغي، بل رسالته الفريضة أن يمد نظره إلىٰ سياق السورة كلها ، وسياق القرآن كله -إن استطاع ذلك- ؛ لأنه يستشرف إلىٰ ما يؤدي تمام المعنىٰ القرآني في دقائقه ورقائقه ولطائفه، وذلك لا يتحقق إلا في سياق السورة ثم في سياق القرآن كله"[1].

(١) البلاغة العالية في آية المداينة، د/ سعيد أحمد جمعة: ص٢١، مكتبة الآداب، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

المبحث الثاني: وصف القول بالسديد مقاماته وأسراره البلاغية

جاء وصف القول بالسديد في موطنين من القرآن الكريم:

الأول: في مقام الوصية باليتامىٰ، وذلك في سورة النساء في قوله –تعالىٰ–:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾[1] .

والموطن الثاني في مقام حث المؤمنين علىٰ تقوىٰ الله ومراقبته، وذلك في سورة الأحزاب في قوله تعالىٰ :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[2] .

والآية الكريمة الأولىٰ ليست بعيدة عن الجو العام للمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة؛ "وذلك لأن سورة النساء نزلت بعد غزوة أحد؛ حيث استشهد عدد كثير من المسلمين في هذه الغزوة، و تركوا خلفهم أرامل ويتامي"[3]. ومن هنا كان من المناسب أن تُسلِّط السورة الكريمة الضوء علىٰ هذا العنصر الضعيف، وتكشف عن الأحكام المتعلقة به، وتوصىٰ بما يدفع عنه ألم اليتم، و حرمان الأبوة .

وجاءت الآية الكريمة في سياق حث القرآن الكريم الأوصياء علىٰ حفظ مال اليتيم، وبيان علاقتهم بهذا المال في حال غناهم ويسرهم، و فقرهم وعوزهم، وفي ظل هذا التوجيه جاء هذا التهديد والوعيد الذي يجتث من قلوب الأوصياء خاصة، وقلب كل مسلم عامة، بذور الطمع في مال اليتامىٰ،

---

(١) سورة النساء:٩.

(٢) سورة الأحزاب:٧٠.

(٣) القرآن وعلم النفس ، د/ عبد الوهاب حمودة : ص ٧٩، المكتبة الثقافية ، دار القلم ، ١٩٦٢م.

كما حثتهم علىٰ تطييب خاطرهم ، ومراعاة شعورهم بالكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة.

والملاحظ هنا أن الآية الكريمة لم تسلك مسلكا مباشرًا، أو تعبيرًا صريحًا في حثها الأوصياء علىٰ الرعاية والعناية بأمر اليتامىٰ بأن تقول (اتقوا الله في اليتامىٰ وقولوا لهم قولًا سديدًا)، كما كان النظم عند الأمر بتقوىٰ الله ورعاية الأرحام في قوله تعالىٰ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾(١).

بل حثَّت الأوصياء علىٰ حفظ مال اليتامىٰ، والإحسان إليهم من خلال تلك اللافتة التحذيرية التي تذكرهم بأن يضعوا أنفسهم موضع آباء هؤلاء اليتامىٰ الذين غادروا الحياة ، ويضعوا أولادهم موضع هذه الذرية الضعيفة التي يتولون الوصاية عليها، بأن يخافوا عليهم من الضياع والإهمال والفقر، كما يخافون ذلك علىٰ أولادهم من بعدهم.

وفي هذا أبلغ مسلك في إثارة الشفقة في قلوب الأوصياء نحو هؤلاء اليتامىٰ، وتحريك مشاعرهم واستجاشة ضمائرهم، وترقيق قلوبهم ، وإثارة العطف والرحمة فيها، فيعاملونهم بمثل ما يحبون أن تُعامل به ذريتهم الضعاف بعد وفاتهم، فالإنسان كما يدين يدان، وهو مطالب أن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعامل به، يقول الشيخ الزمخشري: "أمروا بأن يخشوا الله ، فيخافوا علىٰ من في حجورهم من اليتامىٰ ويشفقوا عليهم خوفهم علىٰ ذريتهم، لو تركوهم ضعافًا وشفتهم عليهم ، وأن يقدروا ذلك في أنفسهم ويصوِّروه، حتىٰ لا يجسروا علي خلاف الشفقة والرحمة"(٢).

---

(١) سورة النساء:١.

(٢) الكشاف : ١/ ٤١٨.

وكان أول عناصر النظم في تلك اللافتة التحذيرية هو أسلوب الأمر المفاد من صيغة المضارع المقترن بلام الأمر (وليخش)، وهذا من شأنه أن يثير في النفس إجلال الله والإحساس بهيبته وعظمته يقول الراغب : " و الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يُخشىٰ منه"(١).

كما جاء التعبير بالفعل (تركوا) ماضيا، وكأن الترك صار أمرًا محققًا وواقعًا مع أن السياق يقتضي التعبير بالفعل المضارع؛ لأن الفعل لم يقع بعد؛ ولذا أوَّل الشيخ الزمخشري الترك بالمشارفة، أي مقاربة حصول الحدث فقال:" فإن قلت: ما معنىٰ وقوع لَوْ تَرَكُوا وجوابه صلة للذين؟ قلت: معناه: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدَهم لذهاب كافلهم وكاسبهم" (٢).

وأبان صاحب الانتصاف عن سر ذلك فقال: "ولهذا المجاز في التعبير عن المشارفة علىٰ الترك سِرٌ بديع، وهو التخويف بالحالة التي لا يبقىٰ معها مطمع في الحياة، ولا في الذبّ عن الذرية الضعاف، وهي الحالة التي وإن كانت من الدنيا، إلا أنها لقربها من الآخرة، ولصوقها بالمفارقة، صارت من حَيّزها، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك"(٣).

---

(١) المفردات:١٥٥.

(٢) الكشاف : ١/ ٤١٨.

(٣) حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن منير السكندري :١/ ٤٧٨، وهي مطبوعة ضمن طبعة الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لجار الله الزمخشري- طبعة: دار الكتاب العربي -بيروت -ط٣-١٤٠٧ هـ.

فالتعبير بالماضي عن المضارع هنا فيه تذكير قوي لهؤلاء الأوصياء بأن تركهم للحياة ليس ببعيد عن مراد الله في أية لحظة، بل هو شيء قريب منهم ، ومن ثمَّ عليهم أن يتقوا الله في يتامىٰ غيرهم حتىٰ يوجد من يتقي الله في أولادهم من بعدهم.

و التعبير بلفظ (ذرية) فيه ما يرقق قلوب الأوصياء نحوهم، ويبعث في نفوسهم المزيد من الخوف علىٰ أولادهم لشدة الحاجة إلىٰ من يكفلهم ويعولهم من بعدهم، يقول الراغب: "والذرية أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان يقع علىٰ الصغار والكبار معا"(١) ووصفها بالضعاف فيه حث قوي علىٰ إثارة بواعث الرحمة تجاه اليتامىٰ، وحض علىٰ استجابة القلوب وامتثالها لما أمر الله به نحوهم.

والتعبير بالخوف في جواب (لو) الشرطية (خافوا عليهم) يتناسب مع بواعث القلق والخوف من المستقبل والقدرة علىٰ مواصلة الحياة التي تعتري الآباء علىٰ ذريتهم إذا ما غادروا الحياة وتركوهم دون من يعولهم و يقف بجانبهم، ويوفر لهم الحياة الكريمة، ولذا يقول الراغب : "الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو محققة " (٢).

ويقول الزركشي : في التفرقة بين (الخوف والخشية) الخشية: " تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشىٰ قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا، ويدل علىٰ ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل علىٰ العظمة، قالوا: شيخ للسيد الكبير، والخيش: لما عظم من الكتان، والخاء والواو والفاء في تقاليبها تدل علىٰ الضعف" (٣).

---

(١) المفردات : ١٨٣ .

(٢) السابق :١٦٦ .

(٣)البرهان في علوم القرآن ، للزركشي : ٤/ ٧٨.

ومن هنا يظهر دقة التعبير القرآني في المغايرة في التعبير بالخشية لتعلقها بالله في صدر الآية الكريمة، ثم التعبير بالخوف لتعلقها بالذرية الضعاف وما يعتري نفوس الآباء من الخوف عليهم من الضياع والإهمال من بعدهم.

ثم ذيَّلت الآية الكريمة بحث الأوصياء علىٰ الامتثال للأمر الإلهي بقوله– تعالىٰ –: ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾[1] " والسَّديد السَّداد : الصواب من القول، يقال : إنه ليُسِدُّ في القول ، وهو أن يصيب السداد يعني القصد... والتسديد : التوفيق للسداد، وهو الصواب والقصد من القول والعمل، وَرَجُلٌ سَديدٌ وأَسَدُّ: مِنَ السَّدَادِ وَقَصْدِ الطَّرِيقِ.. والسَّداد بالفتح: الاستقامة والصواب؛ وفي الحديث: ((قَارِبُوا وسَدِّدوا))[2]أي: اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة، وهو القصد في الأمر والعدل فيه " [3].

وأصله من سد الخلل، يقول ابن منظور: سدد: السَّدُّ: إِغلاق الخَلَلِ ورَدْمُ الثَّلْمِ. والسِّدادُ: مَا سُدَّ بِهِ، وَالْجَمْعُ أَسِدَّة. وَقَالُوا: سِدادٌ مِنْ عَوَزٍ وسِدادٌ مِنْ عَيْشٍ أَي مَا تُسَدُّ بِهِ الْحَاجَةُ، وَلِهَذَا سُمِّيَ سِداد الْقَارُورَةِ، بِالْكَسْرِ، وَهُوَ صِمامُها؛ لأَنه يَسُدُّ رأْسَها؛ وَمِنْهَا سِدادُ الثَّغْرِ، بِالْكَسْرِ، إِذا سُدَّ بِالْخَيْلِ وَالرِّجَالِ [4].

---

(١) سورة النساء:٩.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٣) كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتىٰ الشوكة يشاكها، ح(٢٥٧٤)

(٣) لسان العرب: سدد. بتصرف.

(٤) ينظر: السابق المادة نفسها .

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة أن "القول السَّديد: كلام يتميَّز بإصابة المعنىٰ إصابة كاملة بطريقة فيها الإيجاز البليغ، وجذب الانتباه، والمطابقة لمقتضىٰ الحال" (١).

وبهذا تبدو الدقة في الأداء القرآني في اصطفاء هذا الوصف للقول دون غيره من الأوصاف الواردة في الذكر الحكيم كأن يقال: وليقولوا قولًا حسنًا، أو لينًا، أو كريمًا، أو ميسورًا؛ إذ في هذا الوصف (سديدًا) إشارة إلىٰ كل قول حَسن من شأنه أن يبعث علىٰ حُسن معاملتهم، مع وجوب مراعاة مصلحتهم في الوقت ذاته، فلا إفراط في التدلُّلِ فيلحق بهم الضرر، ولا تفريط في الأخذ بالشدة والقسوة؛ اعتقادًا من الأوصياء بأن ذلك المسلك مما يحقق مصلحتهم، ولذلك يقول أحد المفسرين المحدثين في تفسيره : "هو القول الذي يحمل النصح والتوجيه، والتسديد لليتامىٰ و إعدادهم إعدادا صالحًا للحياة تمامًا كما يفعل الأب مع أبنائه، وإلا فهو قول غير سديد وخيانة للأمانة التي اؤتمن الأوصياء عليها"(٢).

كما أشار صاحب المنار في تفسيره بالقول السديد : " هو الحكم الذي تدرأ به المفسدة ، وتحفظ المصلحة ، كما أن سداد الثغر يمنع استطراق شيء منه يضر ما وراءه" (٣).

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (٣/ ١٨٧٣)، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب : ٢/ ٧٠٨ ، الناشر: الفكر العربي، القاهرة.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا : (٤/ ٣٢٣).

وهذا التفسير أدق وأعمق مما ذكره الشيخ الزمخشري رحمه الله بقوله : "والقول السديد من الأوصياء ألا يؤذوا اليتامىٰ ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب، ويدعوهم يا بُنَيَّ يا ولدي "(١).

والأمر في الفعلين (فليتقوا الله وليقولوا) علىٰ حقيقته من طلب الفعلين علىٰ جهة الاستعلاء والإلزام، وفيه مبالغة في الطلب وقوة في الحث علىٰ تلبيتهما، وأنهما كالفرض الواجب التنفيذ ، وذلك لما في فواتهما من تضييع لهؤلاء اليتامىٰ الذين هم في رعاية الأوصياء، وتضييع في الوقت ذاته لأولادهم من بعدهم أيضا إذا لم يتقوا الله في اليتامىٰ الذين هم تحت أيديهم و أمانة في أعناقهم.

والتعبير بـ (الفاء) الفصيحة، (فليتقوا الله) فيه إيحاء بسرعة الامتثال، ووجوب الإسراع في تلبية هذا التوجيه الإلهي، والتصريح باسم الجلالة في ظل هذا السياق له دلالته القوية علىٰ الحرص علىٰ الامتثال لهذا الأمر؛ وذلك لما يوحيه من معاني القهر والهيبة والجلال، وشدة وقعه العظيم في النفوس، وتأثيره القوي في قلوب الأوصياء ؛ إذ فيه تهديد صارخ بضياع أولادهم إذا لم يمتثلوا لتقوىٰ لله ﷻ، وتحذير بليغ بأنهم لن يفلتوا من قبضه الله وعقابه، وهذا العقاب في أولادهم ؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وعطف جملة (وليقولوا) علىٰ جملة الأمر بالتقوىٰ من عطف الخاص علىٰ العام؛ إذ هو داخل في حيزه ، إلا أن القرآن الكريم بالغ في أهمية هذا القول والعناية بشأنه؛ فعطفه علىٰ الأمر بالتقوىٰ ؛ إشارة إلىٰ أهمية هذا القول السديد، وإيحاء بأنه عنوان التقوىٰ وأساسها، وحرصًا علىٰ إشاعة الكلمة

(١) الكشاف : ١/ ٤١٨ ، ٤١٩.

الموفقة والمسدَّدة التي تراعي مصلحة هؤلاء اليتامىٰ، وتطيِّب نفوسهم، وتعوضهم توجيه الأبوة وحنانها، بعيدا عن جرح مشاعرهم ، وإيذائهم بأي وجه كان، أو الإهمال والتقصير معه في أي شأن من مجالات الحياة ، وذلك " لأن اليتيم يجرحه أقل قول يهين، ولا سيما ذكر أبيه وأمه بسوء، وقد جرت العادة بتساهل الناس في مثل هذه الأقوال ، وإن كانوا عدولًا حافظين للأموال محسنين في المعاملة" (١).

والمقام الثاني الذي وصف فيه القول بالسديد في سياق سورة الأحزاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾(٢) .

وجاءت الآية الكريمة بعد أن نهىٰ الله ﷻ جماعة المؤمنين عن التشبه ببني إسرائيل في إيذائهم لنبيهم موسىٰ ،، فأمرهم بعد ذلك بتقوىٰ الله تعالىٰ ومراقبته والخوف منه ، وقد جعل الشيخ الزمخشري رحمه الله " هذه الآية مقررة للتي قبلها، بُنيت تلك علىٰ النهي عما يؤذي رسول الله ،، وهذه علىٰ الأمر باتقاء الله – تعالىٰ – في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر ، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسىٰ ،، وإتباعُ الأمرِ الوعدَ البليغ، فيقوىٰ الصارف عن الأذىٰ والداعي إلىٰ تركه" (٣). والمراد "نهيهم مما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث علىٰ أن يُسَدَّد قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله"(٤).

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا : ٤/ ٣٢٧.

(٢) سورة الأحزاب: ٧٠.

(٣) الكشاف : ٣/ ٥٨٧.

(٤) السابق: الصفحة نفسها.

والقول السديد، قال ابن عباس: صوابا، وقال مقاتل وقتادة: سديد في شأن زيد وزينب والرسول، وقال ابن عباس وعكرمة: لا إله إلا الله ، وقيل ما يوافق ظاهره باطنه، وقيل: ما هو إصلاح من تسديد السهم ليصيب الغرض، وقيل: السديد يعم الخيرات(١).

والآية الكريمة وإن ربطها بعض المفسرين بالآية التي قبلها وجعلها مقررة لها، إلا أنَّ الأولىٰ أن تحمل علىٰ عمومها وطلاقة الأمر فيها؛ لاشتمالها علىٰ رأس الخير كله، وأساسه وعموده، ولعل هذا هو السر في جعلها مما يُذكَّر به المسلمون في بداية خطبة الجمعة الأسبوعية .

ووصف القول بالسديد في ظل سياق الآية الكريمة فيه توجيه للمؤمنين إلىٰ تسديد القول وإحكامه وتدقيقه، ومعرفة ما يهدف إليه وما يترتب عليه، وكذلك مراعاة تحري صدقه وصحته وخلوه من كل ما ينحرف به عن جادة الحق والصواب، أو يؤدي به إلىٰ الاعوجاج والانحراف، وهذا -بلا شك- مما يؤسس لأمة ذات وعي تعي خطورة الكلمة وأثرها، ويؤهلها لحمل أمانة التبليغ كما أبانت السورة الكريمة في السياق القريب بعد ذلك في قوله جل شأنه :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ .... ﴾(٢).

ووصف القول بالسديد-أيضًا- في ظل سياق السورة العام مما يتناغم ويتناسب مع ما طرحته السورة الكريمة في ثناياها من قضايا تحتاج إلىٰ حسم ، ودقة ، ووضوح ، وصراحة مثل: قضية إبطال عادة الظهار ، وعادة التبني، وقد جاء التعقيب علىٰ ذلك، بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾(٣)، فهو

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٥٠٨.
(٢) سورة الأحزاب:٧٢
(٣) سورة الأحزاب:٤.

مجرد قول طائش، وليس وراءه شيء من الحقيقة والسداد، وكذلك إبطال آثار المؤاخاة التي كانت أول الهجرة إلىٰ المدينة، وقررت السورة في تحديد وحسم بأن ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾[1]، وكذلك قضية الحجاب وتنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي ، وزوجاته في حياته وبعد مماته .

كما يتناغم القول السديد مع نهي جماعة المؤمنين من الاستماع إلىٰ جماعة المنافقين في إثارة الشبهات والأقاويل الداعية إلىٰ تثبيط العزائم، وإرجاف الصفوف، وكذلك محاولاتهم الدائبة في ضرب الحياة الاجتماعية، وإشاعة الفسق والفجور في جنبات المجتمع.

ومن الملاحظ أن وصف القول بالسديد هنا جاء معطوفًا علىٰ الأمر بالتقوىٰ كما في سورة النساء، وذلك من عطف الخاص علىٰ العام تنبيهًا علىٰ أهمية هذا الخاص، وأنه أساس التقوىٰ، ولذا استحق أن يذكر مرتين، مرة في حيز العام، وأخرىٰ خاصًا به.

موازنـــــــة بين الآيتين:

وإذا كانت آية النساء هيأت للأمر بالتقوىٰ وما عطف عليه بما يستجيش النفوس، ويحث القلوب علىٰ رعاية اليتامىٰ، والحنو عليهم، وعدم التعدي عليهم، أو إيذائهم بأي وجه كان ، فإن آية الأحزاب هيأت لهذا الأمر بالنداء علىٰ جماعة المؤمنين، وهذا -بلا شك- أبعث لحركة النفس وتهيئتها لاستقبال هذا الأمر المهم؛ حتىٰ يستقر في الأذهان، ويتمكن في القلوب؛ تناسبًا مع خطورته، كما ذكرتهم بوصف الإيمان الذي من شأنه أن يشنِّف الآذان، ويحث النفوس علىٰ الاستجابة والتلبية لما بعد النداء ، وتذكيرها بهذا الوصف يقتضي منها

(١) سورة الأحزاب:٦ .

سرعة الاستجابة لتنفيذ هذا الأمر الإلهي والإحاطة به وتطبيقه في واقع الحياة، وفي كل ما يصدر عنها سلوكًا وحركة ، واعتقادًا وعملاً.

والمتأمل في آية النساء يجد أن الأمر بالتقوىٰ وما عطف عليه من الأمر بالقول السديد جاء بصيغة الطلب بالفعل المضارع المقترن بلام الأمر المجزوم بها وهذه الصيغة (فليفعل) من أقوىٰ صيغ الأمر إبانة ودلالة علىٰ حقيقة معناه(١) ؛ وهي أصل صيغ الطلب عند الكوفيون(٢)، ودلالتها علىٰ الأمر عامة؛ حيث يؤمر بها المخاطب كما يؤمر بها الغائب (٣) ، ومن هنا كان التعبير بتلك الصيغة في ظل هذا المقام يحمل مبالغة قوية ؛ إذ تشعر بدرجة أقوىٰ في الالتزام بتحصيل الفعل وتحقيقه ؛ وذلك لما تتميز به تلك الصيغة – وبخاصة في ظل تكرارها ثلاث مرات في نظم الآية الكريمة – من لهجة حاسمة، ونبرة قوية حادة، وقد تطلب المقام تلك المبالغة، كما استدعاها حالُ هذا العنصر الضعيف(اليتامىٰ) الذين أوصىٰ النظم الكريم بهم الأولياء؛ وذلك لشدة ضعفهم وحاجتهم القوية إلىٰ من يحنو عليهم، ويرفق بهم ، ويقوم برعايتهم حق الرعاية كأبناء الأوصياء تمامًا، ومن هنا كان الأمر هنا في الآية علىٰ سبيل الوجوب والإلزام ، بخلاف الأمر في سورة الأحزاب، فقد جاء بصيغة فعل الطلب المباشر (افعل) ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ حيث كان النداء عامًا علىٰ جماعة المؤمنين بتحقيق التقوىٰ التي كانت قطب

(١) ينظر: صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، د/ محمود توفيق سعد: ٣٥ ، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

(٢) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لابن الأنباري : ٤١٤ ، تحقيق: د/ جودة مبروك، د/ رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٢م.

(٣) ينظر: الأصول في النحو، لابن السراج النحوي البغدادي : ٢/ ٥٧، ت: د/ عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة، ط٣ ، بدون .

ورحىٰ المعنىٰ، وكانت الكلمة الأم في سياق السورة العام، وأُمر بها النبي ، صراحة في مطلع السورة الكريمة، وهو بلا شك سيد المتقين وإمامهم، فكان من التناغي بين مطلع السورة ونهايتها أن ينادَي أيضًا علىٰ جماعة المؤمنين ويؤمروا بالأمر الصريح بالتقوىٰ، كما أُمر بها نبيهم صراحة في بداية السورة، وكان الأمر هنا توجيهًا وإرشادًا ؛ وحثًا وإلهابًا إلىٰ تحصيل الفعل المأمور به والمداومة عليه؛ وذلك لتحققه في واقع الأمر، ومن هنا لم يقتض المقام المبالغة بصيغة الأمر (فليفعل)كما في سياق سورة النساء .

ولما كان الخطاب في سورة الأحزاب عامًا بجامعة المؤمنين، كان الجزاء عامًا أيضًا يشمل الدنيا ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وصلاحُ الأعمال أساس وقبولها، ويشمل الأخرىٰ أيضًا (ويغفر لكم ذنوبكم) التي صدرت منكم، فيمحوها لاستقامتهم علىٰ منهج الله والتزام تقواه، ثم عقب علىٰ ذلك بزف البشرىٰ، والوعد بالفوز العظيم، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ تناسبًا مع عموم التقوىٰ في الآية الكريمة، فكانت الثمرة أعم، والعاقبة أشمل، بخلاف سورة النساء؛ حيث كان محل التقوىٰ خاصًا باليتامىٰ، فكان الجزاء خاصًا بالوعد منه – سبحانه– بحفظ ذرية الأوصياء من بعدهم.

كما نلحظ أنه قُدِّم في آية النساء ما يشعر بالجزاء؛ وذلك استجاشة لنفوس الأوصياء، واستعطافًا لقلوبهم نحو اليتامىٰ الذين هم تحت كفالتهم، بخلاف آية الأحزاب فكان الجزاء مؤخرا وكان الأسلوب أشبه بأساليب الشرط والجزاء ﴿اتقوا الله ..يصلح﴾؛ تأكيدًا علىٰ أن الالتزام بالشرط أوَّلًا هو أساس تحقق الجزاء، مما يضفي أهمية كبرىٰ علىٰ الالتزام بالتقوىٰ ؛ تأكيدا علىٰ أنها قاعدة الإصلاح التي ينبثق عنها كل خير في الدنيا والآخرة كما أبان الجواب.

المبحث الثالث: وصف القول بالبليغ في سياق إرشاد النبي ، إلى كيفية التعامل مع المنافقين

قال –تعالىٰ– :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾[1] .

لم يوصف القول بالبليغ في الذكر الحكيم سوىٰ في هذه الآية، وهي من سورة النساء، جاءت في سياق يكشف عن أحوال المنافقين الذميمة، وطبائعهم القبيحة، ونفوسهم المريضة التي تأنف من الاحتكام إلىٰ شريعة الله وطاعة رسوله ،، بل تسارع إلىٰ الاحتكام إلىٰ غيرهما من الطواغيت وأصحاب الأهواء ، مع الصد والإعراض القوي عن حكم الله ورسوله، قال –تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾[2] ويمتد السياق معددًا مسالبهم، ومسلطًا الضوء علىٰ مفاسدهم، حتىٰ تأتي الآية الكريمة معقبة علىٰ ذلك .

وفي إخبار الله عنهم بأنه (يعلم ما في قلوبهم) فضح لهم بأنه – سبحانه– ليس غافلًا عما يضمرونه، فصدر الآية الكريمة يبرق بالتهديد، وينطق بالوعيد؛ لأنه – سبحانه– يعلم ما في قلوبهم من النفاق وسيجازيهم عليه، ومن ثم اقتضىٰ السياق توجيه النبي ، وإرشاده إلىٰ كيفية التعامل مع هذا الصنف من المنافقين.

---

(١) سورة النساء:٦٣.

(٢) سورة النساء:٦٠.

وقد صُدِّر هذا التوجيه بالفاء الفصيحة، أي: إن كان حالهم كذلك فأعرض عنهم... وهذا مما يكشف عن أهمية تلك التوجيهات ويضفي عليها طابع الأهمية .

وأولها: طلب الإعراض (فأعرض عنهم) وأصله: "ضد الإقبال، مشتق من العُرض -بضم العين -أي الجانب، فأَعْرَضَ بمعنىٰ: أعطىٰ جانبه"(١).

و هو في هذا السياق كناية عن عدم الالتفات إليهم والانشغال بهم والتأثير النفسي بصدودهم وعنادهم، وترك الجدال والمماراة معهم؛ لأن نفوسهم صارت مريضة وذات طباع فاسدة بالنفاق، ومثل تلك النفوس لا تواجه بالجدل والمماراة ، يقول الشيخ الطاهر : "فهذا الإعراض: إعراض صفح، أو إعراض عدم الحزن من صدودهم عنك، أي لا تهتم بصدودهم، فإن الله مجازيهم"(٢).

وثاني تلك التوجيهات لما كان طلب الإعراض عنهم فيه ما يوحي بترك الدعوة معهم، أعقب ذلك الأمر بالأمر الثاني، فقال: (وعظهم) والأمر بالوعظ هنا مما يتناسب مع مهمة الداعية، ومن صميم رسالته في بذل كل جهد في حجر النفوس عن ضلالها وغيها وانتشالها من براثن الكفر والعناد.

وفي إيلاء الوعظ للإعراض إيحاء بأثر الإعراض ؛ إذ في الإعراض عنهم وعدم البشاشة في وجوههم ما يجعلهم يفكرون في أمر أنفسهم، ويقبلون النصيحة والموعظة.

---

(١) لسان العرب : عرض.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/ ١٠٨.

والوعظ كما يقول الراغب: " زجر مقترن بتخويف، قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب"(١).

فالتعبير بالوعظ هنا يتضمن النهي عما في قلوبهم من النفاق وبغض الإسلام، والتذكير لهم عما هم فيه من كفر وشر، بأسلوب يرقق القلب، ويشتمل علىٰ الترغيب والترهيب دون أن يُوغر صدورهم، ويثير فيهم غريزة العناد .

وإطلاق الوعظ هنا يتناسب مع المقام تمام المناسبة، ويفتح مجالًا واسعًا في كيفية التعامل معهم في مختلف المواقف والأحداث.

ثم ثلَّث – سبحانه– فقال : ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾(٢) أي: قولًا قويًّا يصل إلىٰ شغاف قلوبهم، ويبلغ أعماق نفوسهم، ويؤثر فيها ، ويحركها نحو الإيمان تحريكًا قويًا يقلعهم عما هم فيه من كفر وصدود عن تحكيم الله ورسوله ،.

و"البليغ :فعيل بمعنىٰ بالغ بلوغًا شديدًا بقوة، أي بالغ إلىٰ نفوسهم متغلغلا فيها" (٣).

ومادة الكلمة تدور حول الوصول والانتهاء، والاجتهاد في الأمر، والجودة والحسن، يقال : بلغ الشيء يبلغ بلوغا وصل وانتهىٰ، وتبلّغ بالشيء وصل إلىٰ مراده، والبلاغ ما يُبلَّغُ به ويتوصل إلىٰ الشيء المطلوب، والبلاغ الكفاية، والإبلاغ الإيصال، وبالغ يبالغ مبالغة إذا اجتهد في الأمر وشيء بالغ جيد ،

(١) الراغب: ٥٤٢ .
(٢) سورة النساء:٦٣.
(٣) التحرير والتنوير: ٥/ ١٠٨

والبلاغة: الفصاحة ، ورجل بليغ وبُلَغُ ، وبِلَغٌ حسن الكلام فصيحه يُبَلِّغُ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه(١).

فمادة الكلمة إذن توحي بفاعلية القول، و" تدل علىٰ بلوغ المراد بالقول فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلىٰ نفس المقول له، وليس هو كالقول الذي يمر علىٰ الأذن صفحًا"(٢).

وإيثار هذا الوصف للقول في هذا السياق فيه ما يوحي بما يجب أن يكون فيه من التأثير البالغ في تلك النفوس مما يُحوِّلُها من عصيانها، وتأبيِّها علىٰ الحق، ورفضها لتحكيم الله ورسوله، إلىٰ نفوس تسمع الحق فتنصاع له، ولا ترضَىٰ إلا بحكم الشرع في كل أحوالها ومواقفها.

كما تناغم الجرس الصوتي لتلك الكلمة في الدلالة علىٰ معناها، فحرف الباء ذي الشدة والجهارة يُشعر بقوة القول وتأثيره البالغ حتىٰ يكون كالسهم النافذ في اختراق تلك القلوب التي ران عليها بغضُ الإسلام، وماعت بالنفاق، ويعيدها إلىٰ حياض الإيمان والرضا المطلق بتحكيم شريعة الإسلام ويميت ما بها من عناد وضلال

و التعبير بجملة ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ بعد الأمر بالوعظ من عطف الخاص علىٰ العام؛ للتأكيد علىٰ أهمية القول وأثره، فكم من كلمة بليغة قوية أثَّرت في نفوس المدعوين -بإذن الله - فحولتهم من الباطل

(١) ينظر: لسان العرب (بلغ).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذىٰ هو حق الله علىٰ العبيد، المؤلف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفىٰ: ١٢٣٣ هـ): ١/ ٤٨٤، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

والعناد، إلىٰ أعلام و أئمة في رحاب الإسلام، يعملون من أجل رفعة شأنه، وإعلاء كلمته.

ووصف القول بالبليغ في ظل هذا السياق مما يتناسب مع كيفية الدعوة مع تلك النفوس بحيث يبلغ هذا القول الغاية من النفس البشرية، ويؤثر فيها بما يعيدها إلىٰ فطرتها الإيمانية الصافية ويبلغ الغاية في الوعظ والتخويف ، ويحقق الغاية المرجوة منه وهو التأثير في النفوس تأثيرًا إيجابيًا مع ترهيبها وتخويفها ، ومن هنا كان دقة الأداء القرآني في التقييد بـ (في أنفسهم)، يقول الزمخشري: " فإن قلت: بم يتعلق قوله:(في أنفسهم)؟ قلتُ: بقوله (بليغا) أي: قل لهم قولا بليغا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم، يغتمون به اغتماما، و يستشعرون منه الخوف استشعارا، وهو التوعد بالقتل والاستئصال، إن نجم منهم النفاق....، أو يتعلق بقوله: (قل لهم) ، أي قل لهم في معنىٰ أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية علىٰ النفاق قولا بليغا، وأن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفىٰ عليه، فلا يغني عنكم إبطانه" (١).

وفي هذا الوصف –أيضًا– إشارة إلىٰ أن قلوب المنافقين ليست كغيرها ، فالأمر معها يحتاج إلىٰ ما يُثنيها بالقول البليغ الزاجر الرادع الذي يخترقها ويزيل ما بها من مرض عضال أسوأ من الكفر ذاته .

كما أن فيه إشارة إلىٰ أن خطاب المنافق يختلف عن خطاب الكافر، وأنه أصعب منه، ويحتاج إلىٰ خطاب خاص، وهذا مما يتناسب مع طبيعة كل ؛ إذ الكافر لا يعلم الحق، وربما لو علمه لانصاع له، أما المنافق فهو يعلم الحق، ويدَّعي الانتساب له ظاهرا، ويتفلت منه باطلا، وما مُنيت الأمة في تاريخها

(١) الكشاف:١/ ٤٥٩ بتصرف.

الطويل بأسوأ مما منيت به من هؤلاء المنافقين ، وانظر في واقعنا ستجد حالهم إذا ما دعوا إلىٰ تحكيم شرع الله رأيتهم، كما حكىٰ القرآن ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[1]، فإذا انكشف حالهم، وظهرت سوءاتهم، كان حالهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾[2] والمصيبة العظمىٰ أن من هؤلاء مَن ينتسبون إلىٰ الدعوة ، بل من العجيب أن منهم رموزًا وأعلامًا.

(١) سورة النساء:٦١.

(٢) سورة النساء:٦٢.

المبحث الرابع : وصف القول بالثابت في سياق تأييد الله للمؤمنين وتثبيته لهم

قال -تعالىٰ- : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾(١) .

والآية الكريمة هي الآية الوحيدة التي وصف القول فيها بالثابت في السياق القرآني، وقد جاءت في سورة سميِّت علىٰ اسم أبي الأنبياء نبي الله إبراهيم ،، وقد سردت السورة جزءًا من حلقات قصته، وهو في رحاب البيت العتيق، خاشعًا متضرعًا متبتلًا إلىٰ الله ﷻ.

و(الثابت) اسم فاعل من (ثبت)،وثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا استقر، وَيُقَالُ: ثَبَتَ فلانٌ فِي المَكان يَثْبُتُ ثُبُوتًا، فَهُوَ ثابتٌ إِذا أَقام بِهِ. وأَثْبَتَه السُّقْم إِذا لَمْ يُفارِقْهُ. وَفَرَسٌ ثَبْتٌ: ثَقِفٌ فِي عَدْوِه. وَرَجُلٌ ثَبْتُ الغَدْرِ إِذا كَانَ ثابِتًا فِي قِتَالٍ أَو كَلَامٍ؛ وتَثَبَّتَ فِي الأَمْر والرَّأْي، واستَثْبَتَ: تَأَنَّىٰ فِيهِ وَلَمْ يَعْجَل. وَرَجُلٌ ثَبْتُ المُقام: لَا يَبْرَحُ. والثَّبْتُ والثَّبِيتُ: الفارسُ الشُّجاع. والثَّبِيتُ: الثَّابتُ العَقْل. والثِّباتُ: سَيْرٌ يُشَدُّ بِهِ الرَّحْل، وجَمْعُه أَثْبِتة. ورَحْلٌ مُثْبَت: مَشْدُود بالثِّباتِ؛ وأُثْبِتَ فلانٌ، فَهُوَ مُثْبَتٌ إِذا اشْتَدَّتْ بِهِ عِلَّتُه(٢). فالكلمة تدور مادتها حول: الاستقرار، والإقامة، والتريث، والقوة، والتمكن.

"والتَّثبيت تارة يقال بالفعل، فيقال لما يخرج من العدم إِلىٰ الوجود؛ نحو أَثبت الله كذا، وتارة لما يثبت بالحكم فيقال: أَثبت الحاكم عليه كذا أَو ثَبَّته.

(١) سورة إبراهيم:٢٧.

(٢) ينظر: لسان العرب: ثبت.

وتارة لما يكون بالقول سواءٌ كان صدقًا أَو كذبًا. فيقال: أَثبت التَّوحيد وصدّق النّبوّة، وفلان أَثبتَ مع الله إِلهًا آخر" (١).

والآية الكريمة جاءت بعد أن ضرب الله ﷻ مثلا لكلمة التوحيد التي وصفها بالكلمة الطيبة، وشبهها بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وجاءت تلك الآية لتقرر حال أهل هذه الكلمة، و تزف لهم بشري تثبيت الله لهم عليها في الدنيا والآخرة ، وكذلك خذلانه سبحانه لأهل كلمة الكفر الخبيثة.

وقبل الكشف عن ملائمة وصف القول بالثابت لسياق الآية الكريمة أذكر أن عددا من المفسرين وأهل علوم القرآن (٢) ذكروا في شأن تلك الآية أحاديث عدة ، تدل علىٰ أن الثبات هنا هو الثبات في القبر عند سؤال الملكين للعبد عندما يغلق عليه قبره، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وأحمد عن البراء

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، للفيروزآبادىٰ : (٢/ ٣٤٧).

(٢) ينظر: الكشاف :٢/ ٥٣٨، والألوسي : ٧/ ٢٠٤،ومصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور للبقاعي: ٢/ ٢٠٠ ، دار النشر مكتبة المعارف، الرياض ، ط أولىٰ ، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٧ م ، والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي: ٤/ ٢٦٦ ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .
ومعترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، لجلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: ٩١١هـ) : ٣/ ٥٠٩، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، والصحيح المسند من أسباب النزول المؤلف: مُقْبِلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادعِيُّ (المتوفىٰ: ١٤٢٢هـ): ١/ ١٢٣. الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة الطبعة: الرابعة مزيدة ومنقحة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م

بن عازب أن رسول الله ، قال : ((المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾(١)) (٢).

وذكروا في سياق تفسيرها ما رواه أبو داود عن عثمان بن عفان ﷺ، قال: ((كان رسول الله ، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم فإنه الآن يسأل)) (٣).

ونقل الشيخ القرطبي أن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ، لما وصف مسألة منكر ونكير وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يا رسول الله يكون معي عقلي؟ قال: نعم، قال: كُفيتُ إذًا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية، ونقل في تفسيره عن القفال وجماعة في الحياة الدنيا، أي في القبر؛ لأن الموتىٰ في الدنيا إلىٰ أن يبعثوا ، وفي الآخرة، أي : عند الحساب، وحكاه الماوردي عن البراء، قال المراد بالحياة الدنيا: المسألة في القبر، وبالآخرة: المسألة في القيامة(٤).

---

(١) سورة إبراهيم:٢٧.

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٧٣٥) كتاب التفسير، باب {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت}، ح(٤٤٢٢)

(٣)سنن أبي داود، أول كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، ح(٣٢٢١) ا(٣/ ٢١٥)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت . قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: ٩/ ٣٦٤.

قال الشيخ الرازي: "القول المشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال، وتثبيته إياه علىٰ الحق"(١).

وبالنظر في هذه الأقوال التي ربطت بين ذكر النبي ، لهذه الآية في مقام دفن الميت، أو اقتران نزولها بسؤال الميت في قبره ، نجد في ذلك ما يتناغم مع جلال المعنىٰ فيها، وهو ما يتناسب مع خطورة هذا الموقف وشدة هوله علىٰ العبد؛ حيث تلك اللحظات الأولىٰ له في قبره، إذ يُخَلَّىٰ بينه وبين ربه مالك أمره، فيرسل له هذين الملكين ليسألانه من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في الرجل الذي بعث فيك؟ وفي تنزيل رب العالمين -سبحانه- لتلك الآية في هذا الموقف بالأخص غاية المطابقة للمقام؛ إذ فيه تطمين للنفوس المؤمنة، وتبشير للقلوب التي ارتبطت بالله، وتعلقت به بأن الذي سيتولىٰ تثبيتها في هذا الموقف هو الله ﷻ .

ولكن بالنظر في السياق الكلي للسورة ، وما تعالجه من قضايا، وتعرضه من أحداث، وتسوقه من معان نجد أن قصر هذه الآية علىٰ سؤال الميت في قبره، كما ورد في سبب النزول لا يكشف عن مناسبة وصف القول بالثابت كشفا تاما وتضييق لعطاء هذا الوصف في هذا السياق؛ لأنه أعم من سؤال الملكين في القبر، بل يشمل كل قول يصدر من العبد في الدنيا، وكل موقف يتعرض له في الآخرة، والعبرة كما يقولون: بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للرازي: ١٩ / ٩٤ ، وينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي : ٣/ ٣٠، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان – ط الأولىٰ – ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

ولابد من النظر في السياق العام للسورة حتىٰ يتجلّىٰ مدىٰ مطابقة هذا الوصف للقول وملاءمته للسياق، وكيف استدعىٰ هذا الوصف بالأخص دون غيره من أوصاف القول، كالقول السديد مثلا، أو القول الفصل، أو القول الطيب مثلا.

ومن هنا نجد أن السور الكريمة ذكرت كثيرًا من المعاني التي تتطلب وصف القول بالثابت في سياق الآية الكريمة، وأول ذلك ما جاء في مطلعها﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾(١) فهذا الكتاب هو الحق الثابت، والقول الراسخ الذي لا شك فيه، وهو الذي ينبغي أن تتعلق به النفوس، وترتبط به القلوب، ولا يخفىٰ -أيضا- هذا التناسق البيِّن، والترابط الوثيق، والتآلف القوي بين لفظ (النور)، الذي هو في دلالته المحدودة مستعار للإيمان، وبين وصف القول بالثابت، فالنور هداية وقوة وباعث للراحة والطمأنينة، وهذا كله من أعظم دواعي الثبات، و(الظلمات) التي هي في دلالتها المحدودة مستعارة للكفر، تخبط، وحيرة، وتيه، وقلق، واضطراب، وهذا من التناسب الواضح مع قوله – سبحانه- : ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾.

كما ترتبط الآية بالمحور العام والقضايا الرئيسة التي تعالجها السورة الكريمة، وهي وِحْدَةُ الرسالات السماوية، ومجيء الرسل جميعا بالبينات الواضحة الداعية إلىٰ توحيد الله ﷻ والإذعان له، والإقرار له بالألوهية، وإفراده بالعبودية، وهي القضية التي واجهها أعداء الرسل وتصدوا لها بكل

(١) سورة إبراهيم:١ .

قوة، وكان حالهم كما حكت السورة الكريمة ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾[1] .

والشك هنا في ذات الله -سبحانه-؛ ولذلك كان تعقيب الرسل في الجواب عليهم: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[2] . والشك هنا في هذا السياق أيضا يقابل الثقة واليقين، وقوة التمسك بالحق، وغير ذلك من المعاني التي تُستنبط ويفوح بها قوله -سبحانه- (بالقول الثابت).

كما أن وصف القول بالثابت في الآية الكريمة مما يتناغم ويتآلف مع حسن توكل الرسل واعتمادهم علىٰ الله ﷻ وثقتهم بنصرته وتأييده عندما قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾[3] فالآية ناطقة بالثبات علىٰ الموقف، واليقين بالنصرة .

كما يرتبط وصف القول بالثابت في الآية الكريمة ويتناغم في تآلف نظمي بديع مع السياق القريب، السابق مباشرة للآية الكريمة ، تأمل وصف الشجرة الطيبة التي جعلها الله وصفًا لكلمة التوحيد والتي تكاد تكون المعنىٰ الأم ، والفكرة الرئيسة في السورة، وصفها الله بقوله: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[4] فهنا أصل ثابت، وهناك قول ثابت، تناسب لفظي رائق بين لبنات النظم الكريم يجعل الذهن في دائرة معجمية واحدة أو قريبة، شحذًا له

(١) سورة إبراهيم:٩.
(٢) سورة إبراهيم:١٠.
(٣) سورة إبراهيم:١٢.
(٤) سورة إبراهيم:٢٤

ولفتًا واضحًا نحو الفكرة العامة التي يدور حولها السياق، كما يبدو الطباق المعنوي بين وصف القول بالثابت، ووصف الشجرة الخبيثة التي ضربها الله مثلا لكلمة الكفر فهي ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾(١) هي شجرة واهية ضعيفة لا تقوىٰ علىٰ الثبات والصمود، رمزًا قويًا لضعف الشرك، وهشاشة الباطل، وإن بدا قويًا متجبرًا يبطش أحيانا بالحق وأهله.

هذا عن السياق القبلي للآية الكريمة، أما عن السياق المتأخر عنها واللاحق لها فنجده يرتبط ارتباطا وثيقا بوصف القول بالثابت ويدعو إليه، ويتطلبه هذا المقام – أيضًا– ويظهر ذلك جليا فيما سردته السورة الكريمة من تلك اللقطة الخاشعة المتضرعة في شأن سيدنا إبراهيم، وهو يدعو ربه بجوار أول بيت وضع للناس ومنارة التوحيد في الأرض، ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾(٢) إنه دعاء يفوح بالثبات والثقة في موعود الله، وتلبية أمره، و التسليم المطلق، وتفويض الأمر إليه وحده، وهذا لا يبعد عن وصف القول بالثابت في سياق الآية –محل الدراسة–.

وبهذا يتجلىٰ في غاية الوضوح أن معنىٰ الثبات الذي وُصف به القول في الآية الكريمة يتناغم مع معظم المشاهد والمعاني التي تناولتها السورة في اتساق وتلاؤم واضح، وهذا يُعَدُّ من أحد وجوه إعجاز هذا الكتاب العظيم حيث "وجدت أبنية من النظم الكلامي غير مستندة إلا علىٰ ما بينها من تناسق هندسي، وتجاذب روحي، أحكمه الحكيم العليم وقدَّره اللطيف الخبير، وفي القرآن الكريم صور كثيرة من هذا النظم الذي يعتمد علىٰ تجاذب الكلمات،

(١) سورة إبراهيم:٢٦

(٢) سورة البقرة:١٢٦.

وتعانق الآيات، فيكون ذلك رباطها الذي يمسك بها، ويشد بعضها إلىٰ بعض في وثاقة وإحكام "[1] .

وبالنظر في النظم البلاغي للآية الكريمة نجد عدة خصوصيات بلاغية ترتبط بوصف القول الثابت، وأول ما يظهر منها بناء تلك الآية علىٰ صيغة الفعلية، بتقديم لفظ المسند (يثبت) دون تقديم اسم الجلالة (الله يثبت) بما يفيده من تقرير الخبر وتوكيده؛ وذلك لأن مقصود النظم لا يتجه إلىٰ ذلك المعنىٰ، بل يتجه إلىٰ معنىٰ التثبيت، ويكاد يكون هو المعنىٰ الغالب علىٰ السياق في الآية، بل علىٰ سياق السورة كلها، الثبات للرسل في مواجهة أقوامهم، والثبات للجماعة المؤمنة في مواجهة بطش وجبروت الطغاة وأهل الشرك وأعداء الدعوة في كل عصر، والذي حكت السورة طرفًا منه. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ ﴾[2] .

كما تظهر دقة البيان القرآني في اصطفاء التعبير بالفعل (آمنوا) والعدول عن التعبير بصيغة اسم الفاعل (المؤمنين) والمقابلة للتعبير بلفظ (الظالمين)؛ وذلك لأن صيغة المؤمنين وإن كانت تدل علىٰ ثبوت الإيمان ورسوخه إلا أنها لا تتناسب مع الفعل (يثبت)؛ إذ لوكان الإيمان ثابتا راسخا ما احتاج صاحبه إلىٰ التثبيت، وشأن المؤمن في رحلته الدنيوية أن تعتريه الابتلاءات والعقبات، والفتن والمغريات التي تحتاج أن يثبته الله في اجتيازها، ومن هنا جاء التعبير بالفعل المضارع (يثبت) الدال علىٰ معانىٰ التجدد والاستمرار؛ لأن العبد يحتاج إلىٰ تثبيت الله له في كل لحظة، وهذا المعنىٰ أشار إليه فضيلة

(١) إعجاز القرآن، د. عبد الكريم الخطيب: ص٢٦٩، دار الفكر العربي- بيروت – بدون.

(٢) سورة إبراهيم:١٣.

الشيخ الشعراوي رحمه الله بقوله: "وكلمة (التثبيت) دلت علىٰ أن الإنسان ابن أغيار، وقد تحدث له أشياء غير مطابقة لما يريده في الحياة؛ لذلك فالمؤمن يجب أن لا يخور؛ لأن له ربا ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾(١) " (٢).

والقول الثابت قيل: " المراد به أقوال القرآن؛ لأنها صادقة المعاني واضحة الدليل، فالتعريف في (القول) لاستغراق الأقوال الثابتة و الباء في (بالقول) للسببية " (٣).

وذكر ابن عباس أن المراد به : هو قول لا إله إلا الله(٤)، وعلىٰ هذا: فـ (أل) فيه للعهد الذهني، فكلمة التوحيد هي الكلمة الثابتة المعهودة التي أرسل الله لأجلها جميع الرسل، وأوكل إليهم مهمة تبليغها، وهي الأصل المتفق عليه في كل شرائعهم، غرسها الله في فطرة كل إنسان، وجعلها مستقرة في أعماقه وأشهده علىٰ الاعتراف بها، وهو مازال في عالم الذر عندما أخذ العهد علىٰ بني آدم﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾(٥) .

---

(١) سورة الأنعام:١٠٣.

(٢) تفسير الشعراوي- الخواطر، محمد متولي الشعراوي: ١٢/ ٧٥١٤ .الناشر: مطابع أخبار اليوم .

(٣) التحرير والتنوير : ١٣/ ٢٢٦ .

(٤)ينظر: تفسير القرطبي: ٩/ ٣٦٣ ، وينظر: تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للنسفي : ٢/ ١٧٢ .حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي ، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(٥) سورة الأعراف:١٧٢.

وأرىٰ أن القول الثابت في الآية الكريمة أعم من ذلك، فهو يشمل كل قول يثبت علىٰ الحق ويتمسك به صاحبه، يقول ابن القيم: "والقول الثابت ، هو القول الحق الصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبتُ القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها"(١).

موازنـــــة:

والسؤال: لماذا وصفت كلمة التوحيد في السياق السابق بالطيبة في قوله – سبحانه– : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾(٢) .بينما وصف القول بالثابت في هذا السياق ،وأرىٰ أن كلمة التوحيد، التي هي أنقىٰ ما يتلفظ به العبد كلمة باعثة لراحة النفوس وانشراح الصدور، وتطمين القلوب، وكل ذلك وغيره من مستلزمات الشيء الطيب، وهذا تناسب بين تلك الكلمة وموصوفها، وكأنها منبع مسك يفوح طيبا من بين ما يتلفظ به الإنسان من كلام، يعود عليه في كثير من الأحيان بالخسران، أما وصف القول بالثبات في سياق الآية الكريمة فهو يتناسب مع حال العبد وما يواجهه من فتن وابتلاءات تستدعىٰ أن يعينه الله بالتغلب عليها في الدنيا بقول ثابت راسخ يملأ عليه قلبه، ويستولي علىٰ كيانه، وفي الآخرة عندما يأتياه منكر ونكير في أول اختبار له في قبره ويكون العبد في أمس الحاجة إلىٰ ما يثبته بقول راسخ قوي متين نابع من يقينه بالله وشدة إيمانه به في الدنيا، وهكذا يكون حاله في كل مواقف الآخرة، يقول ابن القيمرحمه الله في التعظيم من تلك الآية : "وتحت هذه الآية كنز عظيم من وفق لمعرفته وحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه

(١) تفسير القرآن الكريم لابن القيم :١/ ٤٥٥.
(٢) سورة إبراهيم:٢٤.

فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته الله ، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما"(١).

ووصف القول بالثابت بصيغة اسم الفاعل، من قبيل التجوز علىٰ سبيل المجاز العقلي؛ لعلاقة وصف الشيء بوصف صاحبه، إذ الثابت صاحب القول ، مبالغة في ثبات صاحبه في معتقده وما يصدر عنه، وموفور ثقته ويقينه في قوله فأصل الثبات: "ثبات القلب وصبره ويقينه عند ورود كل فتنة"(٢). ويقول الزمخشري: "الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه" (٣).

كما نلحظ بناء الآية الكريمة علىٰ أسلوب المقابلة، وقد بدا أسلوب الإطناب البلاغي واضحا في الطرف الأول من المقابلة، حيث تعددت القيود فيه التي تُفْهَم ضمنا لو اكتفىٰ النظم بقوله – سبحانه-:﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيعادل الطرف الثاني من المقابلة ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ .

والقيد الأول: (بالقول الثابت) يتعلق بالفعل (يثبت) وفي ذكر هذا القيد إشعار بسببية هذا التثبيت، وإشارة إلىٰ وسليته، وأنهم حصلوا الداعي إلىٰ توفيق الله لهم به من خلال اليقين الذي ملأ نفوسهم، واستولىٰ علىٰ قلوبهم بإفراده – سبحانه– بالعبودية، والإذعان بالخضوع والإجلال ، فكان كل قول يصدر عنهم ثابتا علىٰ ذلك لا يحيد عنه ولا يزيغ.

والقيد الثاني (في الحياة الدنيا والآخرة) يتعلق بالفعل (يثبت) وفيه مزيد من التكريم، وغاية من التفضل، وعظيم البشري بعموم التثبيت والتوفيق

(١) تفسير القرآن الكريم لابن القيم :١/ ٣٤٦.
(٢) تفسير السعدي: ١/ ٨٦٧.
(٣) الكشاف : ٢/ ٥٣٨.

للمؤمنين في الدارين، "فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلىٰ اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة علىٰ تقديم ما يحبه الله علىٰ هوىٰ النفس ومرادتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات علىٰ الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح" (١).

وتختم الآية بما يؤذن بطلاقة قدرة الله ﷻ في التثبيت للمؤمنين والخذلان للظالمين بجملة التذييل ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي "ما توجبه الحكمة لأن مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم"(٢)، نسأل الله ﷻ أن يمَّن علينا وعلىٰ كل المؤمنين بالقول الثابت في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير السعدي: ١/ ٤٢٥.
(٢) الكشاف: ٢/ ٥٣٩.

المبحث الخامس: وصف القول بالكريم في سياق الوصية بالوالدين

قال –تعالىٰ– :﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾(١) .

و الآية الكريمة من سورة "الإسراء"، جاءت في سياق ما أوحىٰ به – سبحانه– إلىٰ نبيه ، من الحكم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾(٢)وهذا تصريح واضح بأن هذه الآيات وحي من حكمته –سبحانه–؛ و ذلك لأن بها وما جاء في سياقها من الحكم الأخرىٰ صلاح الكون وعلىٰ أساسها تكون العبادة الصحيحة لله وحده.

وكان أول تلك الحكم العظيمة ما أمر به – سبحانه– عباده بالتوحيد، واختصاص العبادة به وحده ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بقصر العبادة علىٰ كونها لله وحده قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، و بعد أن قرر القرآن عقيدة التوحيد بشكل حاسم، وبصورة محددة واضحة، عطف عليها حقا من أعظم الحقوق علىٰ العباد بقوله ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، و هذا العطف يبرز العلاقة القوية الواضحة بين عبادته – سبحانه– و ما للوالدين من حق علىٰ الأبناء؛ وذلك لأن الله – سبحانه– هو المنعم الأول، والوالدان هم أصحاب الفضل المباشر، والله ﷻ هو صاحب الفضل علىٰ الجميع، وفي هذا تأكيد علىٰ أن حق الوالدين مقدم علىٰ جميع الحقوق، وأن الإحسان إليهما والبر بهما من الإيمان بالله ودليل علىٰ طاعته– سبحانه–.

---

(١) سورة الإسراء:٢٣.

(٢) سورة الإسراء:٣٩.

ولم تكتف الآية الكريمة في نظمها المبدع بالأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ولكنها أكدت حقهما، ووجوب الإحسان إليهما خاصة في حال الكبر، وقد جاء التعبير عن ذلك في نظم معجز دقيق من خلال أسلوب الشرط (إما يبلغن عندك الكبر)، وهذا أبلغ بكثير من قولنا: (وبالوالدين إحسانا عند الكبر) إذ لو قيل ذلك ، لأضيفت العندية إلىٰ الكبر ، و لم تضف إلىٰ ضمير المخاطب (عندك)، وبهذا يفوت التنبيه علىٰ الولد علىٰ الواجب المطلوب منه تنفيذه، وهو إيواء الوالدين عنده ، في بيته تحديدًا أو تحت مظلته ورعايته، كما يفيد التعبير بأسلوب الشرط بـ (إن) والتأكيد بزيادة (ما) عليها ، بما يجب علىٰ الأبناء من وجوب التعلق بالآباء والارتباط بهما خاصة في حال الكبر كما يتعلق الجواب بالشرط في وضع اللغة في ذاتها، وكذلك يفوت عطاء ما أدته أداة الشرط (إن) التي تستعمل غالبًا في الأمر النادر القليل ، وكأن الحق – سبحانه– يحث الآباء علىٰ أن يغتنموا تلك الفرصة النادرة بالرعاية والإحسان إلىٰ الوالدين، ولا يعدُّوها عبئًا ثقيلاً عليهم، كما يعتقد أو يتعامل معهم بعضُ الجاحدين من الأبناء.

ثم جاء الجواب في صوره النهي ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وكأن (لا) الناهية هنا صيحة تحذير وصرخة مدوية في سمع الأبناء بألا يقعوا في هذا المنهي عنه، ولو مجرد قول (أف) لهما و(أف) "صوت يدل علىٰ التضجر،

وهو اسم فعل مضارع بمعنىٰ (أتضجر)، وهو قليل، فإن أكثر باب أسماء الأفعال أوامر، و أقل منه اسم الماضي، و أقل منه اسم مضارع" (١).

وأصل (الأُفِّ)، كما يقول الراغب: "كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجري مجراها، ويقال ذلك لكل مستخف به استقذارا له "(٢)

والتعبير بتلك الكلمة يؤكد رفض أي شيء يصدر من الأبناء يوحي بالتضجر حتىٰ ولو بأقل القليل، مثل تلك الكلمة البسيطة في تركيبها اللغوي، وكأن فطرة اللغة ذاتها تشارك في الرفض لهذا العقوق، حتىٰ ولو بدا بسيطا عند بعض الأبناء، ثم أعقب النهي بنهي آخر فقال : ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ والنهي الأول " نهي عن إظهار الضجر بالقليل أو الكثير، وقوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ نهي عن إظهار المخالفة في القول علىٰ سبيل الرد عليه والتكذيب له "(٣) "والنهر الزجر بصياح وغلظة، وأصله الظهور، ومنه النهر لظهوره "(٤).

ثم أعقب – سبحانه– هذا المنهي عنه من القول بما ينبغي أن يقال، فقال -جل شأنه-: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، وفيه تنبيه واضح، وتحديد حاسم لما ينبغي علىٰ الأولاد تجاه آبائهم من القول.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للسمين الحلبي: ٧/ ٣٤١ ، تحقيق: د/ أحمد محمد الخراط ، الناشر: دار القلم، دمشق– ط أولىٰ – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

(٢) المفردات للراغب: ٢٨.

(٣) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي:١٠/ ٦٢ ، ٦٢ .

(٤) مختار الصحاح، للرازي، مادة (نهر)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م . وينظر: لسان العرب : المادة نفسها.

و الكَرَمُ كما يقول الراغب: " إذا وصف الله تعالىٰ به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، نحو قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(١) ، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتىٰ يظهر ذلك منه....، وكلّ شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم" (٢).

ووصف القول المأمور به للوالدين بهذا الوصف خاصة في هذا السياق، دون غيره من أوصاف القول، مثل: فقل لهما قولا ميسورًا، أو لينًا، أو حسنًا، مما يتناسب مع المبالغة التي أرادها القرآن في وجوب تحري وانتقاء كل ما هو شريف طيب من القول، كما يفتح آفاقًا رحبة للبر والإحسان بهما مع وجوب تحري أكرمها وأزكاها، وذلك لما لهما من مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة تقتضي من الأبناء التعظيم والإجلال، والتقدير والاحترام لهما بكل صور القول الكريم، وهو كما يقول الزمخشري: " هو الذي يقتضيه حسنُ الأدب، ويستدعيه النزولُ علىٰ المروءة، مثلُ أن يقول يا أبتاه ويا أماه، كما قال إبراهيم ، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾(٣) مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء وسوءِ الأدب"(٤).

وأرىٰ أنه أعم من ذلك؛ إذ يشمل كل جميل وطيب من القول مقرونًا بما يفيد التعظيم والتبجيل، والاحترام، والأدب، والوقار.

---

(١) سورة النمل: ٤٠.
(٢) المفردات : ٤٣٠ ، ٤٣١ بتصرف.
(٣) سورة مريم: ٤٢
(٤) الكشاف :٣/ ١١.

كما أن وصف القول بالكريم مما يتناغم مع المقام الداعي إلىٰ تكريمهما وعدم صدور أي لفظ فيه شيء من الإيحاء بالإهانة والجفاء، وسوء الأدب معهما، وبخاصة مع مراعاة هذا القيد (عندك الكبر) إذ الكبر مدعاة؛ لأن يصدر منهما ما قد يدفع الابن إلىٰ الرد عليهما بما لا يليق، أو التهاون في حقهما[1] فجاء الوصف الكريم لينبه إلىٰ أن هذه المرحلة العمرية تقتضي عناية خاصة، ورعاية معينة لا يليق بها إلا الكريم من القول، والجميل من الفعل.

(١) وهذا ما حذرت منه السنة النبوية ، وتوعدت مرتكبيه فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم – قال : ((رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ» قيل مَنْ يا رسول الله؟ قال «مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ)) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، باب رغم أنف من أدرك أبويه فلم يدخل الجنة ٤/ ١٩٧٦ .

المبحث السادس: وصف القول بالميسور في سياق الوصية بالأقارب والمساكين وابن السبيل

قال- تعالىٰ -:﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾(١) .

والآية الكريمة من سورة الإسراء جاءت معطوفة علىٰ الأمر السابق عليها ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢) ، فلما أمر الله ﷻ بالوصية بهؤلاء بإعطائهم حقوقهم من الصلات والبر، وبما يربط أواصر العقيدة برباط التكافل والتضامن ، جاءت هذه الآية لتبرز ما قد يقع فيه بعض المؤمنين من عدم القدرة علىٰ معاونتهم ومساعدتهم والوقوف معهم في محنتهم وإعطائهم شيئا من الأمور المادية .

ولذلك كان النظم دقيقًا في بيان سبب الإعراض عنهم، فهو إعراض مشروط ومقيد و محدد بتلك الغاية النبيلة؛ ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾(٣) وليس إعراضا منشؤه البخل والبغض والكراهية بل هو "كناية عن الفقر؛ لأن فاقد المال يطلب رحمة الله وإحسانه"(٤)، وهو " حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة " (٥).

---

(١) سورة الإسراء:٢٨.

(٢) سورة الإسراء:٢٦.

(٣) سورة الإسراء:٢٨.

(٤) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٢٠/ ٣٢٩.

(٥) السابق الصفحة نفسها.

ومن هنا ساق الحق – سبحانه– هذا العذر في ثوب الشرط ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ و(إما) هي (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) للتأكيد، وإيثار التعبير بإن الشرطية التي تستعمل في الأصل في الشرط غير المقطوع به يشير إلىٰ ما ينبغي أن يكون، وهو عدم الإعراض عن هؤلاء إلا لحاجة شديدة، وهذا الإعراض ليس نهائيًا ، فإذا انعدمت المادة فينبغي أن تعوض بالقول الحسن، والكلمة الطيبة التي تنبئ بالعطاء عند تحقق اليسار، وتعد بالمعاونة والمساعدة عند القدرة علىٰ ذلك.

وتنكير لفظ (رحمة) وهي الشيء المرجو من الإعراض يشعر بالتعظيم والتفخيم وما وراءها من توسعة أبواب الرزق، و تعدد جوانبه، وبخاصة هي رحمة من منبع الرحمات كلها (من ربك)، وقد جاء فعل الرجاء في ثوب المضارعة(ترجوها)؛ ليفتح أبواب الرجاء في المستقبل، وليعطي الأمل في ترقب التوسعة في الرزق من الله ﷻ.

وقد جاء وصف القول بـ (ميسورا) في جواب الشرط السابق ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾وفيه تصريح وتحديد لما ينبغي أن يكون عند الفقر وعدم القدرة علىٰ إيتاء من أوصىٰ بهم النظم الكريم شيئا من حقهم المادي، وهو أن يعوَّض ذلك بالميسور من القول؛ إيذانًا للمخاطبين وللأمة كلها بأن العطاء المادي ليس كل شيء، بل هناك عطاء معنوي ربما يفوق العطاء الحسي في تطييب القلب وجبران الخاطر، وإزالة أسباب البغض والكره، يقول الزمخشري: "فقل لهم قولا سهلا لينا ، وعدهم وعدا جميلا؛ رحمة لهم، وتطييبًا لقلوبهم"(١).

(١) الكشاف:٣/ ١٤.

وهذا مما يتسق مع ما تهدف إليه السورة الكريمة في مجملها العام من تقوية أواصر الروابط الإنسانية ، وترسيخ العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة الإسلامية؛ "فالسورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامىٰ بجملته إلىٰ غرض واحد"(١).

كما أن هذا الوصف مما يتناغم مع الرغبة في اليسار، والتوسعة لدي المعطي، وكذا ما يتطلع إليه هؤلاء الفقراء والمحتاجين من دفع ما بهم من فقر وعوز، وتيسير أسباب رزقهم . كما أنه يحكي بجرسه وتكوينه الصوتي مدىٰ حسن هذا القول ويسره وسهولته مع أثره البالغ في نفوس من أوصىٰ بهم النظم الكريم.

وقد جاء النظم الكريم مقدما المتعلق الدال عليهم ﴿فَقُل لَّهُمْ﴾ ليؤكد أنهم ينبغي أن يكونوا موطن العناية، و محط الأنظار، وتنكيل (قولا) وإن هيَّأ لوصف القول بالميسور، إلا أنه ينبئ عن عظيم هذا القول، وأهميته في جبران خاطر هؤلاء، ويفتح مجالًا واسعًا لإرضائهم من خلاله، كما كان تصدير الجواب بالفعل (قل) مما ينبئ عن الأثر العظيم لتلك الكلمة الطيبة في نفوس هؤلاء؛ لأن هذا التوجيه من رب العالمين – سبحانه– وهو أعلم بما تطيب به قلوب عباده، وهذا الأمر وإن بدا أنه للإرشاد والتوجيه، إلا أنني أرىٰ أنه أقرب إلىٰ أن يُحمل علىٰ حقيقته من طلب الفعل علىٰ جهة الاستعلاء، مما يؤكد أن القول ذاته ليس امتنانًا من هؤلاء علىٰ أقاربهم، بل هو أمر نافذ ، وتوجيه واجب، وحق لازم ، فكما أن العطاء المادي ليس امتنانًا عليهم، بل هو حق

(١) الموافقات في أصول الشريعة الإمام الشاطبي: ٣/ ٤٠٩ ، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرىٰ .

من حقوقهم، بدلالة التعبير القرآني الواضح والصريح: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[1]، فكذلك القول الميسور بدلالة فعل الأمر (قل) الصادر من رب العالمين – سبحانه–.

موازنـــــــــة:

ولسائل أن يسأل: لماذا وصف القول هنا بالميسور ولم يكن (قولًا معروفًا) كما في سورة النساء في قوله – سبحانه– : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [2]مع أن المقام في الآيتين حث علىٰ إعطاء تلك الأصناف التي ذكرتهم الآيتان شيئا من الجوانب المادية؟

أقول: السياق في آية الإسراء يكشف عن عدم القدرة علىٰ العطاء المادي؛ لعدم تحقق أسبابه، فاقتضىٰ المقام وصف القول الموجه لهم بالميسور؛ أملًا في التوسعة في أسباب الرزق ، ورجاء تحقق اليسار، وإشارة إلىٰ تيسير الله المرتقب بعد هذا العسر، أما آية النساء فجاءت في سياق حث الوارثين علىٰ تطييب خاطر هؤلاء الأصناف بشيء من التركة؛ نزعًا لأسباب الغل والحسد والحقد تجاه الوارثين لهذا المال الذي جاءهم ربما دون كد أو تعب، ومن هنا فاليسار موجود، ولذا اتجه السياق إلىٰ توجيه الوارثين إلىٰ القول المعروف بحسنه، وتطييبه للقلوب، وإرضائه للنفوس ، وبعدم جرحه لكرامة هؤلاء أو خدش حيائهم عند الإعطاء، أو تعكير صفو العلاقات وفتح باب الشقاق والعداوات عند عدمه.

(١) سورة الإسراء:٢٦.

(٢) سورة النساء:٨

المبحث السابع: وصف القول بالعظيم في سياق نفي دعوى اتخاذ الله الملائكة إناثًا له

قال -تعالىٰ-: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[1] .

جاءت الآية الكريمة السابقة بعد أن نهىٰ - سبحانه- عن الشرك نهيًا صريحًا، وذلك في موطنين اثنين في السياق السابق عليها، فقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[2] وقال -جل شأنه-: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[3] فناسب أن يذكر بعد ذلك ما هو أشد شناعة، و أعظم قبحًا من الشرك، وهو ادعاء أن الملائكة بنات الله -تعالىٰ- عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقد عقب القرآن الكريم علىٰ دعواهم الزائفة السابقة بلفظ القول، وذلك في تذييل الآية الكريمة ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[4] مما يؤكد غاية قبحها وشناعتها، وأنها لا أساس لها من سند أو دليل من عقل أو نقل، فهي مجرد قول طائش، وافتراء كاذب مبالغ فيه، وقد جاء وصفه بـ(عظيما) في غاية المناسبة للسياق والمقام؛ حيث لم ينسبوا لله الولد فحسب، بل اختاروا له أحط الجنسين و أخسهما من منظورهم، وهم البنات، اللاتي يأنفون ويستنكفون منهن، وجعلوا لأنفسهم أحسنها، وهم الذكور، بل غالوا في افترائهم فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الله وأعظم خلقه تلك الإناث.

---

(١) سورة الإسراء: ٤٠.
(٢) سورة الإسراء: ٢٢.
(٣) سورة الإسراء: ٣٩.
(٤) سورة الإسراء: ٤٠.

و(عظيما) صيغة مبالغة من (عَظُم) " وعظُم الشيء أصله: كَبُر عَظْمُه، ثم استعير لكل كبير، فأُجْرِي مجراه، محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنىٰ" (١).

وعلىٰ هذا :فوصف القول بالعظيم هنا جار علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الاسم المشتق؛ وذلك للدلالة علىٰ أن هذا القول بلغ الغاية في القبح والافتراء، والشناعة والفساد، وفي استهجان العقول السليمة والفطر المستقيمة له، يقول الشيخ أبو حيان : "ومعنىٰ عظيمًا: مبالغًا في المنكر والقبح؛ حيث أضفتم إليه الأولاد، ثم حيث فضلتم عليه تعالىٰ – أنفسكم– فجعلتم له ما تكرهون، ثم نسبة الملائكة الذين هم من شريف ما خلق إلىٰ الأنوثة"(٢) .

كما أن وصفه بالعظيم يشير "إلىٰ كمال ظلومية الإنسان وكمال جهوليته. أما كمال ظلوميته فإنهم ظنوا بالله سبحانه أنه من جنس الحيوانات التي من خاصيتها التوالد. وأما كمال جهوليته فإنهم لم يعلموا أن الحاجة إلىٰ التوالد لبقاء الجنس؛ فإن الله تعالىٰ باق أبدي، لا يحتاج إلىٰ التوالد لبقاء الجنس ، ولم يعلموا أن الله منزه عن الجنس، وليست الملائكة من جنسه، فإنه خالق أزلي أبدي، وأما الملائكة فإنهم المخلوقون"(٣).

ونلحظ في صياغة الجملة السابقة ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أنها اكتست عديدًا من المؤكدات؛ حيث التأكيد بـ(إن) واسمية الجملة، واللام الداخلة علىٰ خبر (إن)، والتوكيد بالمصدر، ووصفه (عظيما)؛ وذلك للدلالة علىٰ

(١) المفردات : ٣٤٢.
(٢) البحر المحيط : ٧/ ٥٢.
(٣) روح البيان :٥/ ١٦١.

عظيم جرمهم وفظاعة ادعائهم، وبشاعة افترائهم، وفي توجيه الخطاب إليهم (إنكم) دليل علىٰ تناهي الغضب، ولا شك أن مواجهتهم بهذا الافتراء أشد وأبلغ في التهديد والوعيد الشديد.

كما تناغمت اللبنات المكونة لنظم الآية الكريمة كلها في الدلالة علىٰ شناعة هذا القول وشده نكره وقبحه ، فالتعبير بلفظ (البنين) معرفا؛ لإفادة العموم والجنس؛ ووراء ذلك أن هذا الجنس المفضَّل في منظورهم كان من نصيبهم فقط، في حين لما عبَّر عن الجنس الذي نسبوه لله عبر به منكرا (إناثا) تناغما مع تحقيرهم وازدرائهم لهذا الصنف ومبالغة في تجهيلهم وتوبيخهم، كما أن اللفظ ذاته يوحي بالضعف، يقول الراغب: "لما كان الأنثىٰ في جميع الحيوانات تضعف عن الذكر اعتبر فيها الضعف ، فقيل لما يضعف عمله: أنثىٰ، ومنه قيل : حديد أنيث، وقيل: أرض أنيث سهل، اعتبارًا بالسهولة التي في الأنثىٰ" (١).

والتعبير بلفظ (ربكم) مضافا إليهم في غاية المناسبة لتجهيلهم وتوبيخهم ، وبيان فظاعة قولهم وجرمهم، وفساد مسلكهم وتصورهم؛ إذ لفظ (الربوبية) يعني الرعاية، والعناية، والإحسان والتفضل، ومن كان هذا شأنه في الكمال والجلال لا يليق أن يُدَّعىٰ عليه هذا الباطل الصراخ.

كما أن التعبير بفعل الاصطفاء في قوله (أفأصفاكم) مما يضع لمسته الواضحة في السخرية، والتهكم بهم ، فالاصطفاء "تناول صفو الشيء وأصل: الصفاء خلوص الشيء من الشوب" (٢) وكأن الله حباهم وكرمهم، واختار لهم أحسن الجنسين، كما كان التعبير بفعل الاتخاذ بصيغة الافتعال

(١) المفردات :٣٧.

(٢) المفردات : ٢٨٦.

له عطاؤه – أيضًا– في هذا السياق في قصد السخرية والتهكم بهم ؛ "لأن من عدل إلىٰ أحد الصنفين مع التمكن من الآخر لا يكون إلا شديد الرغبة فيما عدل إليه" (١).

و الجمع بين (البنين) و(البنات) طباق بديع جاء في غاية البلاغة في الدلالة علىٰ انحطاط فكرهم وتفاهة عقولهم وتصوراتهم المريضة؛ حيث جعلوا جانبهم أرجح من جانب الله –تعالىٰ– كل هذا مما يتناغم مع وصف القول بـ(عظيمًا)، أي "عظيمًا في شناعته وبشاعته، عظيمًا في جرأته ووقاحته، عظيمًا في ضخامة الافتراء فيه ، عظيمًا في خروجه عن التصور والتصديق" (٢)، فسبحانه تنزه عن الشريك والولد وتعالىٰ عما يقولون علوًا كبيرًا .

علاقة مطلع السورة بوصف القول في الآية:

إذا كانت لبنات النظم في الآية الكريمة تآزرت مع التعبير بوصف هذا القول بالعظيم، فبالنظر في مطلع السورة الكريمة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾(٣) . نجده كأنه يهيئ ويوطئ لتوجيه النكير وإضفاء القبح والتشنيع علىٰ كل ادعاء يتعارض مع إفراده – سبحانه– بالألوهية، وذلك من خلال هذا اللفظ الذي صُدِّرت به السورة(سبحان)، فكان أول ما يُقرع به السمع؛ تأكيدًا منذ البداية علىٰ توجه السورة الكريمة نحو تنزيه الله ﷻ عن كل ما لا يليق به، والتأكيد علىٰ هذا المعنىٰ، ولذا تكرر

(١) نظم الدرر : ١/ ٤١٩ .

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٢٣، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ

(٣) سورة الإسراء:١ .

فيها هذا اللفظ (سبحان) أربع مرات[1] وكأن هذا اللفظ بما فيه من معاني التنزيه هو الخيط الذي يربط بين جملة المعاني والمقاصد في السورة الكريمة، وكان تمهيدًا لها أجلُّ من أن نطلق عليه براعة استهلال ، وقد ذكر علماؤنا أن "العناية بتأويل مطلع السورة ودلالته علىٰ مقصودها الأعظم معدنه الإيمان بأن السورة القرآنية قائمة من معنىٰ كلي مهيمن علىٰ مكونات السورة كلها ، وأن في مفتتح السورة ما يهدىٰ إلىٰ مكنونها من المعاني و هذا المنهاج في التأويل هو من أصول النظر في فقه البيان"[2].

(١) الآيات رقم : (١ ، ٤٣ ، ٩٣ ، ١٠٨).

(٢) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن ، أ.د/ محمود توفيق سعد : ص٢٣١ – مكتبة وهبة ، ط: أولىٰ ١٤٢٤ هـ .

المبحث الثامن: وصف القول باللين في سياق دعوة فرعون إلى الإيمان والإقلاع عن الطغيان

قال –تعالىٰ– : ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾(1) .

وقد جاءت الآيتان الكريمتان في سورة طه في سياق توجيه الله ﷻ لنبييه موسىٰ وهارون • بالذهاب إلىٰ فرعون لتبليغه دعوة الله، وكفه عن طغيانه وتجبره؛ حيث تجاوز كل الحدود في الشرك، والاستعلاء في الأرض ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾(2) ، ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾(3) كما تجاوز كل حدود الإفساد في الأرض و التنكيل ببني إسرائيل.

ومن العجيب أن يأتي وصف القول باللين في هذا السياق، بل هذا هو الموضع الوحيد الذي وُصف فيه القول بهذا الوصف في القرآن الكريم، وكان المتوقع لدىٰ السامع بعد وقوفه علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وبخاصة في ظل التأكيد علىٰ طغيان فرعون، أن يأمر الله نبييه موسىٰ وهارون • أن يعنفا القول في خطابه، ويغلظا في دعوته، ولكنه التلطف والحكمة في الدعوة، وبخاصة مع العتاة والطغاة، والقرآن الكريم بهذا الأسلوب يرسي منهجًا أصيلًا من مناهج الدعوة إلىٰ الله ﷻ، و يبرز القالب الذي ينبغي أن تغلَّف به الدعوة مع هذا الصنف حتىٰ تؤتي ثمارها، والآية كما يقول ابن كثير:

---

(1) سورة طه:٤٣-٤٤.

(2) سورة النازعات:٢٤.

(3) سورة القصص:٣٨

" فيها عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسىٰ صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله : (فقولا له قولا لينا) : يا من يتحبب إلىٰ من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟"(١).

و"اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني، فيقال: فلان لين، وفلان خشن، وكل واحد منهما يمدح به طورًا، ويذم به طورا بحسب اختلاف المواقع" (٢).

وعلىٰ هذا : فوصف القول باللين في الآية الكريمة جار علىٰ سبيل الاستعارة المكنية؛ حيث شبه القول بجسم ذي ملمس رطب يسهل ليُّه وطيه، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وذلك علىٰ سبيل الاستعارة المكنية.

و يجوز أن تكون الاستعارة تصريحية أصلية في لفظ المصدر؛ حيث استعير اللين للترفق والتلطف في القول مع فرعون، والتعبير بالاستعارة هنا في ظل هذا المقام يبرز أن المراد أن تكون الدعوة معه بأسلوب خاص، وأن يكون الحديث معه بالكلام الطيب الرقيق السهل الذي من شأنه أن يكسر حدة عنفه و يوقظ قلبه إلىٰ التذكر، بعيدًا عن الفظاظة والغلظة معه، والدخول في ساحات الجدال والمعارك الكلامية، وهذا بلا شك أوقع في نفسه، وأكثر

(١) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ٣/ ١٥٩ . تحقيق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٩ هـ

(٢) المفردات:٤٦١ .

تأثيرًا في قلبه، وأنجح في استجابته إلىٰ حديث موسىٰ؛ "فإن تليين القلوب مما يكسر ثورة العناد ويلين عريكة الطغاة "(١).

والقول اللين ذكر فيه المفسرون عدة أقوال:

- قيل: نحو قوله تعالىٰ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾(٢) ؛ لأن ظاهره الاستفهام والمشورة، وعرض ما فيه الفوز العظيم.

- وقيل: عداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا يُنزع منه إلا بالموت، وأن تبقىٰ له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلىٰ حين موته .

- وقيل: لا تجبِّهاه بما يكره والطُفا له في القول؛ لما له من حق تربية موسىٰ، و لما ثبت له من مثل حق الأبوة.

- وقيل: كنِّياه، وهو من ذوي الكنىٰ الثلاث أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرة(٣) .

وأرىٰ أن القول اللين يعم ذلك جميعًا، ولا يوجد شيء يحدده، والأولىٰ أن يحمل علىٰ دعوته بأسلوب فيه رفق وملاطفة دون تغليظ ومخاشنة في القول مما يوجب التنفير والبعد عن القبول والاستجابة .

موازنات وفروق:

وإن قيل ما سر التعبير صراحة بالقول اللين في سورة طه ،بينما ذكر ما ينبئ عنه في سورة النازعات ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾(٤) ؟

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي :٧/ ١٢٧ . تحقيق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٨ هـ

(٢) سورة النازعات:١٨-١٩

(٣) ينظر: الكشاف: ٣/ ١٤٧، وأبا السعود: ٣/ ٤٦٤ .

(٤) سورة النازعات:١٧-١٩ .

والجواب -والله أعلم- أن وصف القول باللين في سورة طه مما يتناسب مع السياق العام للسورة كلها، فمعاني الرحمة، والرعاية، والإنعام ، والعناية غمرت جو السورة كلها، و انتشرت في جميع جوانبها، وذلك منذ مطلعها، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[1] وفي ذلك من الإنس والرعاية والتلطف بنبينا الكريم، وتحديد طبيعة مهمته، وهي التذكرة لمن يخشىٰ، فلا مجال للشقاوة وألم النفس بحمل الناس قسرا علىٰ الدعوة .

ثم رعاية الله لنبيه موسىٰ ومؤانسته له عندما ناداه عند الوادي المقدس طوي، وتذكيره بامتنان الله عليه، بإنجائه من فرعون وهو طفل صغير، كما أن السياق منصب في السورة الكريمة علىٰ الدعوة إلىٰ الله والتذكير به؛ ولذا كثرت معاني الذكر فيها، تأمل: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[2]، وقوله: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾[3]، وقوله: ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾[4]، وقوله : ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾[5] ولاشك أن الدعوة والتذكير يناسبها اللين والرفق، ومن هنا كان التصريح بالقول اللين مما يتناسب مع الجو العام للسورة الكريمة كلها.

بخلاف سورة النازعات والروح السارية فيها من بث الذعر والخوف والهول والروع من مشاهد يوم القيامة في بدئها ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا

(١) سورة طه:١-٣.
(٢) سورة طه:٣.
(٣) سورة طه:٣٣-٣٤.
(٤) سورة طه:١١٣.
(٥) سورة طه:١٢٤.

﴿ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾[1] وما تلا ذلك من الآيات. و في ختامها جاء مشهد القيامة: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾[2] وبين هذين المشهدين وقعت قصة موسىٰ ، ومواجهته لفرعون في لقطة وجيزة، وحلقة قصيرة، تكشف عن طغيانه و تمرده وعناده، وبيان ما أعده الله له من عقوبة عندما ظهر منه غاية التطاول والوقاحة فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾[3] . ومما لاشك فيه أن مثل هذا السياق الذي عُرضت فيه تلك القصة بملابساتها لا يناسبه وصف القول باللين، وإن ذُكِر ما ينبئ عنه ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[4]؛ وذلك إعذارا لله ﷻ قبل أن يواتيه عذاب الله وانتقامه .

والسؤال مازال يفرض نفسه إذ مازلنا في رحاب الموازنة بين آيتي طه والنازعات، لماذا كان الخطاب في سورة "طه" لموسى وهارون معا ، بينما كان الخطاب إلى موسى وحده في آية "النازعات" ؟

والجواب: – والله أعلم– أن توجيه الخطاب في آية النازعات إلىٰ فرعون وحده حيث تجاوز الحد في الكفر والطغيان، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[5] فادعىٰ الربوبية ، ووصف بها نفسه، مؤثرًا بكل جرأة ووقاحة صيغة التفضيل (الأعلىٰ)، ولذا خفت صوت دعوته إلىٰ الهداية، ومن هنا اقتضىٰ السياق توجيه الخطاب إلىٰ موسىٰ ، وحده لدعوته، كما لم تذكر (لعل) وما فيها من رجاء وطمع في هدايته؛ لاستبعاد ذلك منه.

---

(١) سورة النازعات:٦-٧.

(٢) سورة النازعات:٣٤.

(٣) سورة النازعات:٢٤-٢٥.

(٤) سورة النازعات:١٨-١٩.

(٥) سورة النازعات:٢٤.

أما في سورة "طه" فعلا صوت الدعوة والتذكير بالله ﷻ ، بل كانت السمة المسيطرة علىٰ السورة، والمعنىٰ الغالب عليها، ولذا وجدنا موسىٰ ، يطلب من ربه معينا من أهله، واختار أن يكون هارون ، فكان من مناجاته: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾[1]؛ ولذا كانت السورة الكريمة من أكثر السور التي ورد فيها ذكر هارون عليه [2]، بل هي السورة الوحيدة التي صرحت برسالة هارون ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾[3] كما لم يتقدم هارون علي موسىٰ سوىٰ في تلك السورة الكريمة، وذلك علىٰ لسان السحرة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[4]، ومن هنا لما كان السياق منصبا علىٰ التركيز علىٰ مهام هارون، وبيان دوره في دعوة موسىٰ ، اقتضىٰ المقام ذكرهما وتكليفهما معا بالذهاب إلىٰ فرعون، ومخاطبته بالقول اللين، كما جاء التعبير بحرف الترجي[5] (لعل) متناغما مع مقام دعوة فرعون في لين ولطف بخلاف سوره النازعات، فلم يذكر فيها هذا الحرف ، فكيف يُتوقع الإيمان وتُرجىٰ الهداية من إنسان صار في غاية الطغيان وتبجح قائلا :

---

(١) سورة طه:٢٩-٣٢.

(٢) ورد ذكر هارون في هذه السورة أربع مرات في آيات (٣٠ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ٩٢).

(٣) سورة طه:٤٧.

(٤) سورة طه:٧٠.

(٥) هذا الترجي علىٰ بابه بالنسبة للمرسَل وهو – موسىٰ وهارون – وليس بالنسبة لله تعالىٰ – ، إذ لا يجوز في حقه – جل وعلا- إطلاق الترجي والتوقع؛ لتنزيهه عن ذلك وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب . ينظر: البحر المحيط :٧/ ٣٣٧ ، وينظر: الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان جمع: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفىٰ بن عبد اللطيف المنياوي: ١/ ١٠٧٧ . الناشر: مكتبة ابن عباس، مصر الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1]؟ ولذا كان جزاء فرعون في سوره طه قاصرا على الدنيا، وعامًا لفرعون ومن معه ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[2]وهذا كان في الدنيا، بخلاف سورة "النازعات" فكان الجزاء شاملا الدنيا والآخرة، وخاصًا بفرعون وحده ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾[3] وتذوَّق نغم جرس جملتي الجزاء ووقعهما، وكيف ناسب كل منهما سياقه ومقامه.

وبعد هذه الموازنات يتضح تمامًا أثر السياق ،ولا أقصد السياق الخاص، بل السياق العام ودوره البالغ في توجيه متشابه النظم، واستنباط أسراره البلاغية "وأهل العلم يدركون قيمة البناء البياني للسورة؛ إذ هي وحدة التحدي الصغرىٰ الذي جاء به القرآن الكريم، وتمام المعنىٰ لا يدرك في سياقه الجزئي وإنما يدرك في سياق السورة كلها التي هي وحدة التحدي، وكل درس لآية خارج سياق سورتها هو درس خداج عاجز عن استبصار كثير من وجوه المعنىٰ القرآني التي تغزو الروح والقلب"[4].

(١) سورة النازعات:٢٤

(٢) سورة طه:٧٨.

(٣) سورة النازعات:٢٥.

(٤) منهج البحث البياني عن المعنىٰ القرآني في سياق السورة ، أ.د. محمود توفيق محمد سعد: ص١٥٨، مطبعة الأخوة الأشقاء .

المبحث التاسع : وصف القول بالمختلف في سياق بيان تناقض أقوال الكفار حول القرآن الكريم والرسول ، والدعوة عموما

قال تعالىٰ :﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾[1] .

والآيات الكريمة من سوره (الذاريات)، وقد استهل الحق - سبحانه- تلك السورة الكريمة بالقسم بالعديد من آياته الكونية الدالة علىٰ طلاقة قدرته، وكمال حكمته، وشمول علمه وسلطانه، وقد وقعت الآية التي وصفت القول بالمختلف جواب القسم السابق :﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾، وقد جاء هذا القسم معطوفًا علىٰ عدة أقسام أخرىٰ صدرت بها السورة الكريمة، للتأكيد علىٰ أن البعث والحساب أمر حق لا ريب فيه، وأن الجزاء علىٰ أعمال الكافرين واقع لا محالة، ثم جاء هذا القسم ليبطل زعمًا آخر من مزاعمهم ويوضِّح فرية أخرىٰ من افتراءاتهم، ويثبت ما هم فيه من تناقض واختلاف وعدم ثبات علىٰ كلمة واحدة تجاه الرسول والقرآن والدعوة عموما .

وذكر الشيخ أبو حيان أن الخطاب في الآية " الظاهر أنه خطاب عام في المسلك والكافر ، كما أن جواب القسم السابق يشملهما ؛ واختلافهم لكونهم مؤمنا بالرسول ﷺ وكتابه ، وكافرا "[2].

وإن كنت أري أن الخطاب في الآية الكريمة للكفرة وبخاصة مشركي مكة، ويؤيد ذلك ما جاء بعد ذلك مباشرة من الدعاء بالهلاك علىٰ أصحاب ذلك القول المختلف وذكر أوصافهم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾[3].

---

(١) سورة الذاريات:٧-٩.

(٢) البحر المحيط:٩/ ٥٥.

(٣) سورة الذاريات:١٠-١٢.

ويؤيده اتجاه السورة الكريمة لبيان موقف المكذبين لرسل الله تعالىٰ وأن شأنهم التواصي بالباطل ، والإعراض عن منهج الله ﷻ ، ورفض دعوة الحق في كل العصور ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾(١) .ثم ما ختمت به السورة الكريمة من الوعيد والتهديد والإنذار الشديد لهؤلاء المكذبين ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾(٢) . كل هذا يرجح أن الخطاب للكافرين، وبخاصة مشركي مكة، وفي توجيه الخطاب إليهم تبكيت لهم، وتهكم بالغ بهم.

والملاحظ أن النظم القرآني سلك مسلكًا في وصف القول هنا يختلف عن وصفه في العديد من المقامات الأخرىٰ؛ حيث لم يأت القول بصيغة المفعول المطلق كما هو السمة الغالبة، ثم يليه وصفه، فيكون النظم : (إنكم لتقولون قولًا مختلفًا)، بل جعلهم مظروفًا لهذا القول المختلف عن طريق الظرفية المجازية؛ للدلالة علىٰ شدة ملابستهم لهذا القول، كملابسة الظرف للمظروف عن طريق الاستعارة التبعية في الحرف، وتكمن بلاغة الاستعارة هنا في الدلالة علىٰ شدة اختلافهم، وتناقض أقوالهم واضطراب آرائهم دون ثبات واستقرار علىٰ رأي معين وجهة نظر واحدة، وهذا ما أدته -أيضًا- الدلالة اللغوية للفظة ذاتها، فيقال: "اختلف الناس في كذا، والناس خِلْفة، أي مختلفون؛ لأن كل واحد منهم يُنَحِّي قول صاحبه، ويقيم نفسه مقام الذي نحاه"(٣).

(١) سورة الذاريات:٥٢-٥٣.

(٢) سورة الذاريات:٥٩-٦٠.

(٣) لسان العرب : خلف.

"وكل مالم يتساو فقد تخالف واختلف"(١). وهذا يعني أنهم ليسوا علىٰ اتفاق علىٰ كلمة واحدة وأقوالهم يناقض ويخالف بعضها بعضا؛ حيث قالوا عن القرآن: سحر، وشعر، وكهانة، وأساطير الأولين، ثم اختلفوا في طريقة تنزيله، ثم ازدادوا في غيهم وضلالهم ،واختلفوا في ذات المنزَّل عليه وكأن العيب ليس في القرآن ذاته ، بل في ذات من نُزِّل عليه، كما اختلفت كلمتهم حول النبي ، ، فقالوا: شاعر ، وقالوا: كاهن ، وقالوا: مجنون ،وقالوا : إنما يعلمه بشر.

و هذه الأقوال المتضاربة، والآراء المتضادة كناية عن فساد مسلكهم وجهالة موقفهم، وبطلان اعتقادهم، وأنهم أبعد ما يكون عن الحق والصواب؛ لأن الحق لا تتعدد حوله الآراء ولا يختلف في شأنه. يقول الشيخ الطاهر : "والمقصود بقوله :﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ الكناية عن لازم الاختلاف وهو التردد في الاعتقاد، ويلزمه بطلان قولهم، وذلك مصب التأكيد بالقسم، وحرف إن، واللام"(٢) .

وفي توجيه الخطاب إليهم تبكيت لهم، وتهكم بالغ بهم ،؛ لأن منشأ الاختلاف عندهم هو العناد والكبر، وليس عدم الدليل ونقصان الحجة والبرهان، ولعل هذا هو السر في توجه السورة الكريمة في سياقها العام إلىٰ لفت أنظار هؤلاء المشركين وإثارة انتباههم نحو آيات الله المبثوثة في الآفاق والأنفس، الناطقة بوحدانيته، والدالة علىٰ كمال قدرته وربوبيته وقوة سلطانه في هذا الكون الفسيح قال – جل شأنه–: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ

(١) السابق المادة نفسها.

(٢) التحرير والتنوير:٢٦/ ٣٤٢ .

أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] . وقال -جل في علاه- : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[2]. وكل هذه أدلة ساطعة، وبراهين قاطعة علىٰ قدرته – سبحانه- علىٰ بعثهم، وعلىٰ إنزال الكتب وإرسال الرسل، ومن بينهم الرسول ، فهو ليس بدعا في الرسالة، فهناك مسيرة حاشدة من الأنبياء في تاريخ البشرية قبل مبعثه ، ؛ ولذا تعرضت السورة الكريمة لذكر طرف من قصصهم في لقطات قصيرة موجزة، مثل: قصة إبراهيم، وموسىٰ، وعاد، وثمود، ونوح، عليهم جميعًا وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ولكن السؤال الأهم الذي يطرح نفسه ما العلاقة بين المقسم به وجوابه؟ وما وجه التناسب بينهما في هذا السياق؟

والإجابة تقضي أولا بيان معنىٰ (الحبك) ومعنىٰ القسم في الآية الكريمة:

يقول الراغب في بيان معناها في الآية الكريمة: " هي ذاتُ الطرائقِ ، فمن الناس من تصَّوَر منها الطرائقَ المحسوسة بالنُّجوم والمجرَّة، ومنهم من اعتبر ذلك بما فيه من الطرائق المعقولة المدركةِ بالبصيرةِ.... وأصله من قولهم: بعير مَحْبُوك القَرْىٰ ، أي: مُحْكَمُه، والاحتباك: شدُّ الإزار"[3].

واختلفت كلمة السادة المفسرين في بيان معناها:

فقيل: (الحبك) الطرق المختلفة التي هي دوائر سير الكواكب، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنِّيه وتكسُّره، وعن الحسن: ذات الحبك أي النجوم، قال: حُبكت بالخَلْق الحسن، وحُبكت بالنجوم؛ وذلك لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشىٰ تحبيكه، وقيل: حبكها صفاؤها وإحكامها من قولهم:

(١) سورة الذاريات: ٢٠-٢١.

(٢) سورة الذاريات: ٤٧-٤٩.

(٣) المفردات : ١١٤ بتصرف.

فرس محبوك المعاقم أي: محكمها، وإذا أجاد الحائك الحباكة، قالوا: ما أحسن حُبُكُه ، وقيل: الحبك: جمع حبيكة بمعنىٰ: محبوكة أي مربوطة، فمعنىٰ ذات الحبك: ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة(١).

ويقول ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر أقوال العلماء في بيان معناها "وكل هذه الأقوال ترجع إلىٰ شيء وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس ƒ فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفية شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزهرات"(٢).

وعلىٰ هذا يكون المعنىٰ: والسماء ذات الجمال، والبهاء، والحسن، والصفاء، والبناء المتقن، والطرائق المحكمة القوية(٣)، إنكم أيها المشركون لفي قول مضطرب متناقض غير متلائم في أمر الرسول والقرآن، بل في أمر الرسالة عموما.

(١) ينظر: الكشاف : ٤/ ٢٧٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٧/ ٣١ ، ٣٢ . والبحر المحيط: ٩/ ٥٤٧ ، ومحاسن التأويل:٩/ ٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٤/ ٢٣٢.

(٣) ذكر علماء الإعجاز العلمي في العصر الحديث أن قوله تعالىٰ : { والسماء ذات الحبك } فيه إشارة قرآنية واضحة للنسيج الكوني المتقن البناء والحبك، وقد تصوره علماء الفضاء علىٰ شكل يشبه نسيج العنكبوت ، وهي خيوط كبيرة مصنوعة من المادة المظلمة الموجودة في الفضاء بين المجرات. ينظر : النسيج الكوني: رؤية علمية قرآنية، بقلم : عبد الدائم الكحيل:
http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-06-04/707-2012-12-31-20-11-08

أما عن وجه المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه يقول البيضاوي: "ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالطرائق للسماوات في تباعدها واختلاف غاياتها" (١).

وزاد الشيخ زادة كلام البيضاوي توضيحًا فقال: "ولعل النكتة في هذا القسم مع أن عدم ثباتهم علىٰ قول واحد أمر مقرر لا ينكره أحد حتىٰ يؤكد بالقسم إلا أنه أقسم عليه تعظيما للمقسم به من حيث كونه صالحا لبيان حال أقوالهم من اختلافها وتنافي أغراضها للاشتراك بينها وبين الحبك والطرائق في التباعد ذاتًا ومؤدىٰ، كما أن القسم الأول لتعظيم المقسم به من حيث كونه صالحا لأن يستدل به علىٰ المقسم عليه "(٢).

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور : " و مناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك أي طرائق؛ لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قددا، ولذلك وصف المقسم به ليكون إيماء إلىٰ نوع جواب القسم"(٣).

وهذا يعني أنهم بلغوا الغاية في الاختلاف والاضطراب في القول ، ومنشأ ذلك ليس لنقض الدليل والبرهان، فأمامهم أعظم دلائل قدرته – سبحانه– تلك السماء ذات البنيان المتقن، والطرائق المحكمة، والهيئة البديعة، ذات الجمال والحسن، بل منشأ اختلاف قولهم هي طبيعتهم الجاحدة واستحكام الغباء والعناد في نفوسهم، ونزعتهم الشديدة في مواجهة الحق الساطع باختلاق الأقاويل، وبث الشبهات، بدلًا من التسليم والإذعان لوحدانيته – سبحانه– وبصدق رسوله والتصديق برسالته.

(١) تفسير البيضاوي : ٥/ ١٨٠.

(٢)حاشية محي الدين شيخ زاده علىٰ تفسير القاضي البيضاوي ، المؤلف: محي الدين شيخ زاده: ٤/ ٣٩٠، الناشر: دار الكتب العلمية.

(٣) التحرير والتنوير:٢٦/ ٣٤٠.

المبحث العاشر: وصف القول بـ(ثقيلا) في سياق وصف القرآن الكريم

قال -تعالىٰ- :﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1] .

و الآية الكريمة من سورة المزمل، وهي من أوائل ما نزل من السور[2] علىٰ رسول الله ، وجاءت الآية الكريمة بعد عدة آيات من بدئها، وقد اهتمت تلك الآيات بتوجيه النبي وتكليفه بقيام الليل والاجتهاد في العبادة ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾[3]. أي "قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب والكد والتعب، قم فقد مضىٰ وقت النوم والراحة، قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد"[4].

وقد وطأت السورة الكريمة لتلك المعاني بهذا النداء المفعم بالتعطف والإيناس والتودد معه ، ؛حتىٰ يستعد ويتأهل لتلقي نزول القرآن عليه، الذي سيكون منهج رسالته، ومصدر شريعته، و سيظل معجزته الخالدة، وأسطع الأدلة والبراهين علىٰ صدق دعوته.

وفي ظل هذا السياق جاءت الآية الكريمة "وهي جملة مستئنأفة استئنافًا بيانيًا لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبي ، ليحمل شدة الوحي"[5].

---

(١) سورة المزمل:٥.

(٢) حيث نزلت بعد سورة القلم . ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور جعفر شرف الدين (١٠/ ٢١٧) ،تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٠ هـ.

(٣) سورة المزمل:٢-٣.

(٤) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٧٤٤.

(٥) التحرير والتنوير : ٢٩/ ٢٦١.

وأصل الثقل" في الأجسام ثم يقال في المعاني، نحو : أثقله الغُرْمُ والوِزر(١)، و القول الثقيل هنا كناية عن القرآن الكريم، ولم يوصف القرآن الكريم بهذا الوصف في غير هذا الموضع، وقد جاء متناغما مع هذا السياق، الذي يعد النبي ، – لتلقي الرسالة، ويهيئ روحه لتحمل أعبائها والارتقاء بنفسه عن هموم الدنيا وشواغلها ، وآمالها ومغرياتها، فيكون علىٰ المستوىٰ اللائق لتلقي هذا الوحي الإلهي .

ووصف القول بالثقل هنا ذكر فيه السادة المفسرون عدة أقوال ، وكلها لا يخرج عن الثقل الحسي الذي كان يحل بالنبي ، عند نزول الوحي عليه، أو الثقل المعنوي المتمثل بالقيام بما في القرآن من أوامر ونواهٍ وتكاليف وحدود شرعية، يقول ابن عطية: "واختلف الناس لم سماه ثَقِيلًا، فقالت جماعة من المفسرين: لما كان يحل في رسول الله من ثقل الجسم حتىٰ أنه كان إذا أوحي إليه وهو علىٰ ناقته بركت به، وحتىٰ كادت فخذه أن ترض فخذ زيد بن ثابت رحمه الله. وقال أبو العالية والقرطبي: بل سماه ثَقِيلًا لثقله علىٰ الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك. وقال حذاق العلماء: معناه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ومزاولة الأعمال الصالحة دائمة، قال الحسن: إن الهذ خفيف ولكن العمل ثقيل" (٢).

وقيل : ثقيلا أي كلاما عظيما جليلا ذا خطر وعظمة، لأنه كلام رب العالمين، وكل شيء له خطر ومقدار ثقيل. وقيل : هو ثقيل لما فيه من التكاليف والوعد والوعيد، والحلال والحرام والحدود والتكاليف . وقال

(١) المفردات : ٨٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٨٧ . وينظر: الكشاف :٤/ ٤٨٧ . وينظر: البحر المحيط:١٠/ ٣١٤.

محمد بن كعب: ثقيل علىٰ المنافقين؛ لأنه يهتك أسرارهم، وقال السدي: (ثقيلا) بمعنىٰ كريم مأخوذ من قولهم : فلان ثَقُل عليَّ أي كَرُم. وقال ابن المبارك: هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل في الدنيا ثقل في الميزان يوم القيامة(١).

يقول الطبري: "وأولىٰ الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه قول وثقيل ، فهو كما وصفه به ثقيل محملهُ، ثقيلُ العمل بحدوده وفرائضه" (٢).

والذي تميل إليه النفس ويتناسب مع السياق هو أن المراد بالثقل الموصوف به القرآن هنا هو ما فيه من تكاليف وشدة أثره في النفس، وما يحتاجه من بذل كل جهد وتعب في سبيل القيام بتعاليمه وتوجيهاته ودعوة الناس إليها، وحثهم علىٰ التمسك بها، والصبر علىٰ أذىٰ المناوئين وعناد المعارضين، وكل هذا ثقيل علىٰ النفس ولا يخفف ويُسرِّي عنها هذا العبء مثل قيام الليل بما فيه من الصلة العظيمة بالله، وارتقاء النفس ، ارتباط القلب به، وسمو الروح إليه – سبحانه– .

هذا وقد اكتست الآية الكريمة ثوب التوكيد اهتماما بما تحمله من خبر، وتناسبا مع فخامته وعظمته، وبثًا للأنس والطمأنينة في قلبه ، ، وهو يتلقىٰ منهج رسالته، الذي علىٰ أساسه يسير في دعوته، وبقدر غرسه في نفوس أصحابه يكون نجاحها، فناسب ذلك أن يؤكد هذا الخبر تناسبًا مع حجم القضية التي اشتمل عليها، فالشأن في المعاني العظيمة أن تصاغ صياغة حافلة مثلها.

(١) ينظرك تفسير ابن كثير:٨/ ٢٥١. وجامع البيان :٢٣/ ٦٨٢.
(٢) تفسير الطبري: ٢٣/ ٣٦٦.

موازنة:

وإن قيل: كيف يوصف القرآن بالثقل والله ﷻ وصفه باليسر فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾(١)؟

قلت: السياق مختلف، فالآية الكريمة من سورة القمر تكررت أربع مرات، وقد جاءت تعقيبًا منه -سبحانه- بعد عرض مشاهد من مصارع المكذبين لرسلهم، وكلها صورٌ تفيض بالهول، وتنطق بالرعب، فكان من المناسب أن يُذْكَر بعد ذلك ما يطمئن النفوس المؤمنة بما ينجيها من تلك الأهوال والشدائد، وهو القرآن ومن هنا ناسبه أن يوصف باليسر والسهولة؛ دلالة واضحة علىٰ أن العلاج سهل وميسور يناسب الفطرة والنفوس، وينسجم معها، فتندفع بتلقائية عجيبة نحو التذكر والاعتبار، وتعيد حساباتها دومًا، حتىٰ لا يحل بها ما وقع لأسلافهم من المكذبين للرسل ، أما في آية المزمل فالسياق مختلف؛ فالسورة كما أشرتُ من أوائل ما نزل علىٰ رسول الله ، فكان من المناسب الكشف منذ البداية عن طبيعة دعوته، والأعباء والعقبات التي سيواجهها في هذا الطريق، حتىٰ يستعد ويتزود بالزاد المناسب الذي يعينه علىٰ مواصلته، وهذا ما أبانت عنه السورة الكريمة في مجملها العام.

والذي يلحظ في السورة الكريمة أنها ذكرت القرآن باللفظ الصريح مرتين، واحدة في ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾(٢)، وأخرىٰ في نهايتها ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ

(١) سورة القمر:١٧، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .
(٢) سورة المزمل:٤ .

ﵟٱلۡقُرۡءَانِۚﵞ(١) والترتيل والقراءة فيهما الأنس ، والسكينة ، والهدوء، وراحة النفس، واطمئنان القلب ، وهذه المعاني أدعي وأنسب لأن يعبر بلفظ القرآن صراحة كما جاء في الموضعين، ومن عجيب ما يلحظ في السياق القرآني كله أن هذا الوصف (ثقيلا) لم يأت وصفا إلا لأمرين ، وكلاهما عظيم، والأمر الأول في وصف القرآن – كما في الآية محل الدراسة – والثاني في وصف يوم القيامة ﵟوَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗاﵞ(٢) ، فمن أراد النجاة من هول اليوم الثقيل فليتمسك باتباع القول الثقيل .

---

(١) سورة المزمل: ٢٠.

(٢) سورة الإنسان: ٢٧ .

المبحث الحادي عشر: وصف القول بالفصل في سياق الحديث عن القرآن الكريم

قال تعالىٰ :﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾[1] .

والآيتان الكريمتان من سورة الطارق، وقد اهتمت تلك السورة الكريمة في السياق السابق عليهما بإثبات خلق الله ﷻ للإنسان من الماء المهين المتدفق من بين صلب الرجل وترائب المرأة ؛ وذلك تمهيدًا لإثبات قدرته – سبحانه– علىٰ بعثه وإعادته مرة ثانية؛ للوقوف بين يديه متجردًا من أية قوة تعينه ومن كل ناصر يؤيده، وبعد هذا السياق تعرضت السورة الكريمة للتأكيد علىٰ أن هذا القول السابق من القرآن الذي يقرر الرجوع والإعادة مرة ثانية[2]، أو القرآن كله[3] هو القول الفصل الذي لا يلتبس بشيء من الهزل.

وقد جاءت الآيتان الكريمتان في موقع جواب القسم، ولذا كان لابد من الأهمية الإشارة إلىٰ أسلوب القسم السابق عليهما ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾[4] وإبراز الصلة الجامعة، والجهة الرابطة بين هذا القسم وبين المقسم عليه خاصة.

وقبل تلك الإشارة ما هو (الرجع)؟ وما هو (الصدع) اللذان اشتملت عليهما جملة القسم؟ يقول الراغب: " وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي المطر "[5]

---

(١) سورة الطارق:١٣-١٤.

(٢) سورة الطارق:١١-١٢.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ١٠/ ٤٥٣.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير:٣٠/ ٢٦٦.

(٥) المفردات:١٩٥. وأثبت العلم الحديث أن كلمة (الرجع) في الآية لا يراد بها إرجاع المطر فحسب ، بل تشمل مظاهر عديدة للرجع ، فهي بمعنىٰ الإرشاد والإعادة ، حيث ثبت وجود غلاف للأرض يحيط بها يرد إليها كل نافع، ويرد عنها كل ضار،

وسمي المطر رجعًا كما سمىٰ أوبًا ... تسميةً بمصدريْ رجع ، وآب، وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلىٰ الأرض، أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعًا وأوبا ليرجع ويؤوب، وقيل: لأن الله يرجعه وقتا فوقتا " (١).

والصدع في الأصل" الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما" (٢). وهو "مصدر بمعنىٰ مفعول ، أي المصدوع عنه وهو النبات الذي يخرج من شقوق الأرض" (٣)، وسمي صدعًا؛ "لأنه يصدع الأرض أي يشقها" (٤).

والمعنىٰ إذن : أقسم بالسماء ذات المطر الذي ينزل من جهتها مرة تلو الأخرىٰ لينفع العباد والحيوان والنبات، وأقسم بالأرض ذات النبات البازغ من بين شقوقها إن هذا القرآن لقول الفصل.

ولعل السر إذا بين المقسم به والمقسم عليه أن في كليهما حياة عظيمة ونفعًا للناس ، فالمطر ينفع الناس، ويحيي الأرض بعد موتها، فيخرج به النبات والشجر والثمار وكل ما يحتاجه الإنسان وكل كائن علىٰ وجه

فتبين أن كلمة الرجع لها من الدلالات ما يفوق مجرد نزول المطر، وأنه بغير تلك الصفة للجو ما استقامت علىٰ الأرض حياة .

موقع رابطة العالم الإسلامي وكالة الشؤون التنفيذية ، الإدارة العامة لخدمة الكتاب والسنة علىٰ الرابط :

https: / /www.eajaz.org /index.php /Scientific-Miracles /Astronomy-and-Space-Sciences

(١) الكشاف:٤/ ٥٧٦.

(٢) المفردات : ٢٨٠.

(٣) التحرير والتنوير : ٣٠/ ٢٦٦.

(٤) محاسن التأويل:٩/ ٤٥٢.

البسيطة، وكذلك القرآن فيه حياة القلوب والأرواح، وراحة النفوس والأبدان، ويهديها لما فيه سعادتها في الدارين.

ومن هنا يظهر سر وصف القول- والمراد به القرآن- بالفصل في ظل هذا السياق ، وهو التأكيد علىٰ أنه لا مجال حوله للشك والريب؛ حثًا علىٰ أن يكون محلا للعناية والاهتمام والإيمان والتصديق والإذعان والإجلال؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والهدىٰ والضلال. كما يفصل بين الحياة التي أساسها المطر، والممات التي سببها الجدب والقحط، والفصل: بون ما بين الشيئين... والفصل : الحاجز بين الشيئين، والفصلُ: القضاء بين الحق والباطل، واسم ذلك القضاء الذي يفصل بينهما فيْصَل، وقول فصل: حق ليس بباطل(١).

والكلمة تحكي بجرسها الصوتي أنه لا مجال للهوادة والتساهل في الأخذ بتعاليمه، أو الأخذ ببعض أحكامه وترك بعضها الآخر بدعوىٰ الوسطية والاعتدال أو بحجة عدم ملاءمتها للزمن والعصر، كما يدعي الأفاكون الذين يزِّينون الباطل ويميِّعون الشرع والدين.

وقد اكتسىٰ النظم الكريم ثوب التوكيد بالقسم أولا وأضاف إليه في الجواب عدة مؤكدات أخرىٰ ، وهي إن ، واسمية الجملة واللام الداخلة علىٰ خبر (إن) والتعبير بالمصدر علىٰ سبيل المجاز العقلي لعلاقة المصدرية، كل هذا ليجابه هذا الإنكار والعناد الذي علق بنفوس المشركين والمعاندين في كل العصور، وليثبِّت نفوس المؤمنين، ويزيد قلوبهم طمأنينة وحثًا علىٰ التمسك به، والالتزام بتعاليمه وأحكامه.

ومجيء الإخبار عن القرآن الكريم بأنه القول الفصل بعد هذا القسم للتأكيد علىٰ أهمية المقسم عليه وحث ذوي العقول والبصيرة علىٰ أن

(١) ينظر: لسان العرب: مادة فصل.

يتمسكوا به، و يعضوا عليه بالنواجذ؛ لأن فيه نجاتهم، ومصدر سعادتهم وهدايتهم، وفيه يكمن خيرهم ونفعهم، وعليه صلاح حياتهم ومعاشهم، وهم بدونه أموات كالأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا ماء.

وهذا القسم من رب العالمين - سبحانه- و هو صادق بلا قسم، فيه استجاشة للعقول والقلوب، واسترعاء للأسماع إلىٰ التوجه إلىٰ عجيب قدرته وعظيم مخلوقاته، إلىٰ تلك السماء التي هي مصدر الإنعام علىٰ الخلق بالمطر الذي لولاه لهلك الناس وكل مخلوق علىٰ وجه الأرض، وفيه – أيضًا- لفت للأنظار نحو التأمل في الأرض وكيف يحييها الله بعد مواتها بهذا النبات الذي يشقها شقا بإذنه وحوله وقدرته.

يضاف إلىٰ ذلك: أن هذا التوكيد يشير إلىٰ أهمية هذا الخبر، وهو أن القرآن هو القول الفصل الذي لا يشوبه شيء من الباطل والهزل، وتلك أهم القضايا في بناء العقيدة ، والتي دائمًا ما تثار حولها الشبهات، والشأن في مثل تلك القضايا العظيمة ذات الشأن أن تؤكد تناسبًا مع خطورتها وعظمتها.

هذا وقد تناغم جرس الكلمات ووقعها الصوتي (رجع -صدع -فصل) في الدلالة علىٰ أخذ هذا القول مأخذ الجد والقوة والالتزام، كما قال - سبحانه-:﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾[1] .

(١) سورة البقرة:٦٣.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،

فبعد معايشتي لأوصاف القول في القرآن الكريم بالدراسة البلاغية في سياقها ومقاماتها ، يطيب لي أن أسجل أبرز نتائج تلك الدراسة وهي كالآتي:

١- ورد لفظ (معروف) ستا وثلاثين مرة في لغة القرآن الكريم ، ونالت السور المدنية حظها الأوفر من تلك المواضع ؛ حيث بلغ عدد وروده ثلاثا وثلاثين مرة ، وكشفت الدراسة عن أن ما يقرب من نصف هذه المواضع ورد فيما يتعلق بآيات الطلاق وشئون الأسرة عموما ؛ دلالة قوية علىٰ حرص القرآن الكريم علىٰ إشاعة معاني الرحمة، والبر ، والفضل ، والإحسان ، وإنهاء الخلافات بعيدا عن جو المشاحنات ، والخصومات ، والنزاعات ، ولاشك أن الطلاق باب لكل تلك المساوئ.

٢- كشفت الدراسة عن أن لفظ (القول) ورد موصوفا بالصفة السابقة في ستة مواضع من الذكر الحكيم ، وجاءت كلها في السور المدنية ، ومتناغمة مع طابع تلك السور ، وما ترمي إليه من ضبط حركة السلوك، بما يتوافق مع قيم المجتمع الجديد الناشئ القائمة علىٰ مبادئ المحبة ، والعفو، والفضيلة، والعفة ، والطهارة ، وقد بدت تلك المعاني جلية في مقامات ورودها الستة.

٣- ورد وصف القول بـ (سديدا) في موضعين في الذكر الحكيم ، في سورتين مدنيتين ، والموضع الأول في سورة النساء في سياق الوصية باليتامىٰ، وقد جاء هذا الوصف معبرا بدقة متناهية عن مقصد الشارع في الإيصاء بهم ، وتحديد طبيعة الوصية بهم بما يتوافق مع مصلحتهم ، فلا إفراط في الأخذ

بالشدة والقسوة، ولا تفريط في التدلل معهم ، فيلحق بهم الضرر في الحالتين، والموضع الثاني في سياق سورة الأحزاب في خاتمة السورة الكريمة ؛ توجيها وإرشادا للمؤمنين إلىٰ تسديد القول وإحكامه وتدقيقه ، مما يؤسس لأمة ذات وعي ، قادرة علىٰ حمل أمانة التبليغ ، والقيام بحقها علىٰ الوجه الأمثل والأكمل .

٤- كشفت الدراسة عن أن القول لم يوصف بـ (بليغا) إلا مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في سياق يكشف عما يجب أن يكون في خطاب المنافقين ، من التأثير البالغ في نفوسهم ، وإشارة واضحة إلىٰ أن طبيعة الخطاب معهم يجب أن تختلف عن خطاب غيرهم من الكافرين ؛ لأنهم أشد خطرًا علىٰ الأمة، ولذا كان جزاؤهم أعظم وأنكىٰ في الآخرة .

٥- جاء وصف القول بـ (الثابت) مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة إبراهيم ، وقد كشف البحث عن أن الآية التي ورد هذا الوصف في سياقها بمنزلة واسطة العقد في السورة الكريمة ، حيث جاءت كثير من المعاني التي وردت في أعطافها متناغمة معها ، ومرتبطة بهذا الوصف ارتباطًا وثيقًا.

٦- أبان البحث عن وصف القول بـ (كريما) يعد من فرائد القرآن الكريم ؛ حيث لم يرد إلا مرة واحدة في سياق الوصية بالوالدين في سورة الإسراء ، وقد جاء الوصف متناغما مع المبالغة التي أرادها القرآن الكريم في وجوب تحري وانتقاء كل ما هو شريف طيب من الأقوال والأفعال مع الوالدين ، كما يفتح آفاقا رحبة في وجوب الإحسان إليهما والبر بهما ، تناسبا مع مكانتهما ومنزلتهما العظيمة .

٧- كشف البحث عن أن العطاء المادي ليس كل شيء ، وذلك من خلال القول بـ (ميسورا) في سورة الإسراء ، وذلك في سياق الوصية بالأقارب

واليتامىٰ والمساكين ، وقد جاء الوصف متسقًا مع ما تهدف إليه السورة الكريمة من تقوية الروابط الإنسانية وترسيخ العلاقات الاجتماعية بين أفراده المجتمع .

٨- كذلك جاء في السورة ذاتها وصف القول بـ (عظيما) في سياق دعوىٰ اتخاذ الولد لله – سبحانه – وقد جاء هذا الوصف متناغما مع السياق القريب ، وكذلك السياق الكلي للسورة الكريمة في الدلالة علىٰ شناعة هذا الادعاء ، وشدة نكرانه وقبحه.

٩- لم يرد وصف القول باللين إلا مرة واحدة في سياق دعوة موسىٰ وأخيه هارون – عليهما السلام – لفرعون إلىٰ الإيمان والاعتراف بربوبية الله عز وجل – وقد جاء هذا الوصف متناغما مع المقام ، كاشفًا عن منهج القرآن في دعوة العتاة والطغاة من أمثال فرعون بما يكسر ثورة عنادهم، ولا يتصادم مع شدة طغيانهم .

١٠- جاء وصف القول بـ(مختلف) مرة واحدة ، وذلك في سياق مواجهة المشركين ببيان تناقض أقوالهم حول القرآن الكريم ، والرسول ﷺ ودعوته عمومًا ، وقد سلك النظم القرآني مسلكًا مغايرًا في وصف القول في هذا السياق ، يختلف عن وصفه في العديد من المقامات الأخرىٰ، حيث لم يأت القول بصيغة المفعول المطلق ثم يليه وصفه ، بل سلك مسك المبالغة فجعل المخاطبين من المشركين مظروفين لهذا القول ؛ دلالة بالغة علىٰ شدة اختلافهم ، وتناقض أقوالهم .

١١- كذلك جاء وصف القول بالثقيل مكنيًا به عن القرآن الكريم وذلك في سورة المزمل ، التي تعد من أوائل ما نزل علىٰ رسول الله ﷺ ؛ توجيهًا

وإرشادًا إلىٰ طبيعة مهمة دعوته، وما تحتاجه من تحمل الأعباء، وبذل التضحيات، في سبيل القيام بها علىٰ الوجه الأمثل والأكمل .

١٢- كما جاء وصف القول بالفصل ، مرادًا به القرآن الكريم ؛ تأكيدًا علىٰ أنه لا مجال للشك والريب حوله ، أو الهوادة ، والتساهل في الأخذ بتعاليمه ، كما ينعق بعضٌ من أدعياء الوسطية والاعتدال زورًا وبهتانًا ، وخداعًا وتضليلًا .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤ م

٢. أحكام القرآن للجصاص ، تحقيق : عبد السلام محمد علي شاهين- الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت- ط أولىٰ – ١٤١٥ هـ -١٩٩٤م.

٣. استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني ، د/ عيد محمد شبايك ، مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – العدد الثامن – يناير -٢٠٠٤م.

٤. إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني للأستاذ الدكتور / محمود توفيق سعد ، مطبعة الأمانة، القاهرة ، الطبعة الأولىٰ – ١٤١٢ هـ .

٥. الأصول في النحو، لابن السراج النحوي البغدادي، ت: د/ عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة، ط٣ ، بدون .

٦. إعجاز القرآن، د. عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي- بيروت – بدون.

٧. إعراب القرآن للنحاس، الناشر : منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان- ط : أولىٰ- ١٤٢١ هـ .

٨. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفىٰ درويش، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ .

٩. الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن ، أ.د/ محمود توفيق سعد – مكتبة وهبة ، ط: أولىٰ ١٤٢٤ هـ .

١٠. الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لابن الأنباري، تحقيق: د/ جودة مبروك، د/ رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٢م.

١١. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابي الحلبي وشركائه (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان

١٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، للفيروزآبادىٰ، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

١٣. البلاغة العالية في آية المداينة، د/ سعيد أحمد جمعة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

١٤. التبيان في إعراب القرآن للعكبري، المحقق : علي محمد البجاوي ، الناشر: عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه.

١٥. التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» للطاهر بن عاشور، الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

١٦. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٧. تفسير البيضاوي- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤١٨ هـ.

١٨. تفسير الشعراوي الخواطر المؤلف: محمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم .

١٩. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م .

٢٠. تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٩ هـ .

٢١. تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، ابن قيم الجوزية، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٠ هـ.

٢٢. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب الناشر: الفكر العربي – القاهرة.

٢٣. تفسير الماوردي = النكت والعيون، الماوردي ، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان

٢٤. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للنسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م

٢٥. تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٦ هـ

٢٦. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذىٰ هو حق الله علىٰ العبيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م

٢٨. جامع البيان في تأويل القرآن ، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٩. صحيح البخاري ،المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ

٣٠. صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، د/ محمود توفيق سعد ، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٣١. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي ، شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

٣٢. الجدول في إعراب القرآن الكريم ، محمود بن عبد الرحيم صافي، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ

٣٣. الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان جمع: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفىٰ بن عبد اللطيف المنياوي الناشر: مكتبة ابن عباس، مصر الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

٣٤. الجنىٰ الداني في حروف المعاني، للمرادي ، المحقق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٣٥. حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن منير السكندري، وهي مطبوعة ضمن طبعة الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لجار الله الزمخشري– طبعة: دار الكتاب العربي –بيروت –ط٣–١٤٠٧ هـ .

٣٦. حاشية محي الدين شيخ زاده علىٰ تفسير القاضي البيضاوي ، المؤلف: محي الدين شيخ زاده، الناشر: دار الكتب العلمية.

٣٧. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، السمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق.

٣٨. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

٣٩. دلالات التراكيب، دراسة بلاغية ،أ.د/ محمد أبو موسىٰ، ط٢ ، ١٤٠٨ هـ–١٩٨٧ م.

٤٠. دراسات في علم المعاني ، د/ حسن أمين مخيمر، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م.

٤١. روح البيان، إسماعيل حقي الناشر: دار الفكر – بيروت.

٤٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ، المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

٤٣. سبل الاستنباط من القرآن والسنة – دراسة بيانية ناقدة، أد/ محمود توفيق سعد ، مطبعة الأمانة – مصر – ط الأولىٰ – ١٤١٣ هـ .

٤٤. سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .

٤٥. شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك لابن عقيل، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار التراث- القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٤٦. شرح المفصل لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية – مصر - بدون .

٤٧. الصحيح المسند من أسباب النزول المؤلف: مُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادعِيُّ (المتوفىٰ: ١٤٢٢هـ) الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة الطبعة: الرابعة مزيدة ومنقحة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

٤٨. علم المعاني ،أ.د/ صباح عبيد دراز ، مطبعة التركي بطنطا١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م.

٤٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.

٥٠. القرآن وعلم النفس ، د/ عبد الوهاب حمودة ، المكتبة الثقافية ، دار القلم ، ١٩٦٢م.

٥١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ .

٥٢. لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ

٥٣. لسان العرب، لابن منظور، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان ، الطبعة: الثانية - ١٤١٨ هـ -١٩٩٧م .

٥٤. اللمع في العربية لابن جني ، المحقق : فائز فارس ، الناشر : دار الكتب الثقافية – الكويت.

٥٥. محاسن التأويل ، القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٨ هـ.

٥٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ.

٥٧. مختار الصحاح ، للرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .

٥٨. صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٥٩. مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور للبقاعي ، دار النشر مكتبة المعارف، الرياض ، ط أولىٰ ، ١٤٠٨ هـ –١٩٨٧ م .

٦٠. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي للبغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

٦١. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٦٢. معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، لجلال الدين السيوطي ، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٦٣. المعجم الكبير للطبراني، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية .

٦٤. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٦٥. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ، راجعه وقدم له: وائل أحمد عبد الرحمن– المكتبة التوفيقية– بدون.

٦٦. مقاييس اللغة، للرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٦٧. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ للغرناطي، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

٦٨. من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د/ محمد الأمين الخضري – الطبعة الأولىٰ– ١٤٠٩هـ–١٩٨٩م .

٦٩. منهج البحث البياني عن المعنىٰ القرآني في سياق السورة، أ.د. محمود توفيق محمد سعد، مطبعة الأخوة الأشقاء .

٧٠. الموافقات في أصول الشريعة الإمام الشاطبي ، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرىٰ .

٧١. الموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٠ هـ.

٧٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م.

٧٣. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ – محمود محمد الطناحي.

٧٤. الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان – ط الأولىٰ – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.

مواقع الإنترنت :

٧٥. مفهوم القول والكلام في القرآن الكريم ، عدنان غازي الرفاعي علىٰ الرابط الإلكتروني :

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=539654

٧٦. الفرق بين الكلام والقول في القرآن لكامل عشري، علىٰ الرابط الإلكتروني:

https://7elmthany.blogspot.com/2016/09/blog-post_4.html

٧٧. موقع رابطة العالم الإسلامي وكالة الشؤون التنفيذية ، الإدارة العامة لخدمة الكتاب والسنة علىٰ الرابط :

https://www.eajaz.org/index.php/Scientific-Miracles/Astronomy-and-Space-Sciences

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
المقـــدمـــة	٥
التمهيـــــد	١١
أ- بيان المدلول اللغوي للفظ (القول).	١١
ب-الفرق بين القول والكلام في لغة القرآن.	١٣
المبحث الأول : وصف القول بالمعروف، وقد جاء في خمسة مقامات هي:	١٧
- وصف القول بالمعروف في سياق إباحة التعريض بخطبة المعتدة.	٢٠
- وصف القول بالمعروف في سياق بيان آداب النفقة .	٣٢
- وصف القول بالمعروف في سياق الوصية باليتامىٰ.	٤٠
- وصف القول بالمعروف في سياق حث الوارثين علىٰ إعطاء ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين شيئًا من التركة	٤٦
- وصف القول بالمعروف في توجيه أمهات المؤمنين بعدم الخضوع في القول .	٤٨
- وصف القول بالمعروف في سياق توجيه المنافقين وعلاج نفوسهم المريضة.	٥٢
المبحث الثاني: وصف القول بالسديد مقاماته وأسراره البلاغية	٦٤
- في مقام الوصية باليتامىٰ.	٦٤
- في مقام حث المؤمنين علىٰ تقوىٰ الله ومراقبته.	٧٢
المبحث الثالث: وصف القول بالبليغ في سياق إرشاد النبي ، إلىٰ كيفية التعامل مع المنافقين	٧٦

المبحث الرابع : وصف القول بالثابت في سياق تأييد الله للمؤمنين وتثبيته لهم	٨٢
المبحث الخامس: وصف القول بالكريم في سياق الوصية بالوالدين	٩٤
المبحث السادس: وصف القول بالميسور في سياق الوصية بالأقارب والمساكين وابن السبيل	٩٩
المبحث السابع: وصف القول بالعظيم في سياق نفي دعوىٰ اتخاذ الله الملائكة إناثًا له	١٠٣
المبحث الثامن: وصف القول باللين في سياق دعوة فرعون إلىٰ الإيمان والإقلاع عن الطغيان	١٠٨
المبحث التاسع : وصف القول بالمختلف في سياق بيان تناقض أقوال الكفار حول القرآن الكريم والرسول ، والدعوة عموما	١١٥
المبحث العاشر: وصف القول بالثقيل في سياق وصف القرآن الكريم	١٢١
المبحث الحادي عشر: وصف القول بالفصل في سياق الحديث عن القرآن الكريم	١٢٦
الخاتمـــــة	١٣٠
المصادر والمراجع	١٣٤
فهـــرس الموضوعات	١٤٤